ابراهيم الكوني

الخسوف 3

أخبار الطوفان الثاني



ابراهيم الكوني

الخسوف

رباعية روائية

3

أخبار الطوفان الثاني

طبعة مُقَوَّمة

احضار الطوفان الثاني

استخدمت في تصميم الأغلفة لوحات فنّاني ما قبل التاريخ
المكتشفة بمنطقة تاسيلي - نآزجر (ليبيا).

* ابراهيم الكوني : **الخسوف ٣ .**
(أخبار الطوفان الثاني).
*** الطبعة الثانية، ١٩٩١.**

*** الناشر : تاسيلي للنشر والاعلام** دار التنوير للطباعة والنشر.

133 Makarios Avenue
Classic House Building - Office No. 4
Tel.: (357 -5) 387463
Fax: (357 - 5) 387464
Limassol - Cyprus

« أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء . كل ما في الأرض يموت ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك » .

العهد القديم
« سفر التكوين »

« أنا على استعداد لأن أتنازل عن : الجيش، الامبراطورية، كليوباترا، مقابل أن تدلوني على منابع النيل » .

يوليوس قيصر
في حوار مع أحد الكهنة المصريين

1 ـ النّبع

(١)

مع اختلال ميزان النهار وانحراف الشمس نحو الغرب انحسرت ظلال النخلة وتراجعت إلى الجهة المعاكسة مؤذنة بحلول العشية. وجد الشيخ نفسه ينام تحت الشعاعات الحارقة والعرق يبلل لثامه وثوبه وأطرافه فرفع رأسه وزحف خلف الظلال الهاربة أمام هجوم أشعة الشمس من الغرب.

عاد يستلقي في رحاب الظل ولكن النوم هجره ورفض أن يعود برغم الوضع المغري الذي هيأه كي يمهد له ويستدرجه من جديد.

استمر راقداً على ظهره، مسبلاً جفنيه، حابساً أنفاسه، مصالباً يديه على صدره، سابحاً بخياله في الفضاء، محاذراً أن يأتي بأبسط حركة قد تزعج حضور هذا الضيف المكابر. ولكن كل الحيل فشلت في التأثير على الزائر.

لعن الشيخ - في سرّه - الشمس وحمّلها مسؤولية طرد ضيفه ذي المزاج المتقلب. أصبح من العسير - في السنوات الأخيرة - أن يتمتع بعودة النوم إذا حدث وانفلت مهما ابتكر من حيل. فيحل محله ضيف آخر ثقيل، عبوس، كئيب، يدعونه: الأرق! اضطر الشيخ أن يشتكي لمهمدو من زيارات هذا الضيف الثقيل فقال العراف وهو يهرش الجمر بالمهماز ليحضر مكاناً مناسباً لوعاء الشاي: «هذا من علامات الشيخوخة يا شيخنا! إذا هجر النوم جفنيك وأرسل الأرق إلى عينيك فاعلم أن الشيخوخة تنوي أن تقتحم عليك خلوتك، وما عليك إلا أن تعد لها الاستقبال اللائق واحذر أن تأخذك على غفلة!». أعقب ذلك بضحكة قصيرة

وأضاف: «ثمة علامة أخرى تشير الى حلول الشيخوخة: البرودة لا تلبث أن تغزو الكفين والقدمين. هل يحدث أن تغمر البرودة قدميك دون مناسبة؟ أقصد في ليالي الصيف مثلاً؟» هزّ رأسه بالنفي فطمأنه مهمدو وهو يكشف عن أسنان متآكلة صفراء: «احمد الله إذن أن الشيخوخة تقبل نحوك برجل واحدة: الأرق رجلها اليمنى وبرودة الأطراف رجلها الثانية».

ضحك مهمدو وحده، في حين اكتفى الشيخ بابتسامة مجاملة تشجيعاً على دعابته. انشغل لحظتها بالتفكير فيما قاله مهمدو. إذا كان الأرق من علامات الشيخوخة فلا شك أنها تطرق أبوابه الآن، ولكن الحمد لله أنه لا يعاني من هجوم البرد في القدمين واليدين على الأقل!

ولكن كيف لم يخطر بباله قبل الآن أن يفكر بإعداد العدة لاستقبال الشيخوخة؟

وجد نفسه يوجه لمهمدو السؤال: «متى شعرت لأول مرة أن الشيخوخة قد ضيقت عليك؟». ضحك العرّاف وتناول من كأس الشاي رشفة، تذوقها في فمه لحظة كي يختبر السكر وقال بمزاج رائق: «هاجمتني لأول مرة على مشارف الأربعين». صمت فجأة والتفت نحو الشيخ وتساءل: «هل تصدق أني أعتبر تلك الأزمة أقوى وأعنف من الأزمة التالية التي هاجمتني في السبعين؟». غادر المرح وجهه وغمرته سحابة خفيفة من الحزن. قال: «كرهت المجتمع وركنت إلى العزلة فقامت بيني وبينها علاقة عشق حتى قال عني الناس أنني أعبد الانطواء ولا أطيق معاشرة البشر واتهموني بغرابة الأطوار ومضى البعض فنعتني بخفة العقل وبلغ الأمر ببعض المتطرفين فوصفوني بالجنون. ولكني لم أتنازل عن وحدتي. فساعدني الانطواء على اكتشاف نفسي وتأمل ما يدور في داخلي فتنفست قليلاً وحققت نجاحاً في الهرب من الإنتحار. أما الأمر مع السبعين فقد اختلف. قابلتها بالرضى والطاعة والتسليم بالمكتوب بدل التمرّد والتململ في الأربعين. ثم فقدت بعدها الإحساس بالزمن. أرى أن كل شروق شمس بعد هذا العمر، أقصد بعد السبعين، هو هبة من السماء. هدية نفيسة نتلقاها، نحن المعمرين، من يدي الله. وشعورنا بأن كل مطلع شمس هو منّة من الخالق ننتزعها في غفلة من الموت يمنح حياتنا طعماً يجعلنا نعرف كيف نتمتع باللحظة الواحدة. آه ما أسرع ما تمر الحياة يا شيخ غوما؟». رفع رأسه نحو الأفق وراقب المغيب وهو يخط لوحة في الفضاء، وأضاف

بحسرة: «إنها غمضة عين! الحياة غمضة عين عجيبة!». وزّع الشاي بين الكأسين وتمتم كأنه يخاطب نفسه: «من يدري. ربما يكمن سرّها في أنها تعادل رمشة العين».

قدَّم له الكأس أصلع من الرغوة فشعر الشيخ غوما بالضيق، ولكنه أحجم عن إبداء الملاحظة احتراماً لصمت العجوز الذي كان يغالب في تلك اللحظة الشعور بقصر عمر الحياة واقتراب العدم.

يذكر غوما الآن أنه سكت يومها طويلاً حتى أن قداسة الموقف والتفكير في الموت أنسياه إحتجاجه إزاء كأس الشاي الذي فشل العراف في إعداده.

الكآبة التي أفسدت مزاج العجوز ونغّصت جلستهما جعلت الشيخ غوما يندم على إلقاء سؤاله.

يئس من عودة النوم فنهض وجلس وهو يمسح حبات الرمل العالقة بلثامه وثوبه. راقب قرص الشمس وهو ينحني نحو الغرب ويتوارى خلف قمة نخلة عالية. مطاردة الظل لعبة الشمس المفضلة. ما أن يغفو ويداعب النعاس جفنيه حتى تمد الشمس المشاكسة يدها وتنزع عنه غطاء الظل وتبدأ بوخزه بهمازها الناري حتى يهرب النوم ويستيقظ من غفوته اللذيذة. يزحف وراء الظل ويحاول أن يقتنص النعاس من جديد ولكن هيهات! يظل راقداً على ظهره، كاتماً حتى الأنفاس متسولاً ومتوسلاً ولكن سلطان النّوم يرفض في عناد، حتى أصبحت هذه الطقوس تقليدية في السنوات الأخيرة.

أنصت لحفيف الريح وهو يداعب أعراف النخيل فتنطق الأشجار بلغة سماوية غامضة. نهض وقصد عين الكرمة بهدف الوضوء.

أشار مستوى الشمس إلى حلول صلاة العصر.

* * *

الشيخ يأوي الآن إلى النخلتين التوأمين القبليتين المتقاطعتين ويقضي الظهيرة تحت أنقاض أم النخيل التي تستند برأسها المقطوع الى النخلتين فتلفه هاتان النخلتان بالرّحمة، حتى أن إحتضان النخلة الشهيدة يبدو للمشاهد، عن بعد، غريباً، حزيناً، مثيراً خاصة بالنسبة لأهل الصحراء الذين عودتهم حياتهم القاسية

في البريّة ألاّ يكشفوا عن مشاعرهم الإيجابية معتبرين ذلك نوعاً من الضعف الذي لا يليق بالرجال النبلاء! ويتندر أهل الواحة فيقولون ان الخجل يمنعهم من الكشف عن مشاعرهم الإنسانية فيسارعون لإخفائها تحت تلك الأقنعة المهيبة التي يلفون بها وجوههم ورؤوسهم، وهم في ذلك مثل النعامة التي تدس رأسها في الرملة في حين تظل مؤخرتها منصوبة في العراء! ويمضي أهل الواحة في تعليقاتهم فيرددون: «يا لهم من بلهاء هؤلاء البدو! يظنون أنهم أفلحوا في إخفاء ما يجول في الخاطر بمجرد أن يربطوا رؤوسهم ببضعة أمتار من الكتان في حين ينسون العيون التي تفضح كل شيء. عليهم أن يخفوا عيونهم قبل كل شيء إذا أرادوا أن ينجحوا في ستر مشاعرهم!» ورددوا كثيراً تلك الأسطورة القديمة التي تؤيد زعمهم في كون الخجل هو الباعث الأول على التزمل باللثام وتقول انهم هزموا في إحدى المعارك لصد غزاة أشدّاء، فخجلوا من ملاقاة نسائهم بعد الهزيمة البشعة فدثروا رؤوسهم ووجوههم بقطع القماش فأصبحت العمامة تقليداً منذ ذلك اليوم.

ولم يفت الأهالي أن يستثنوا الشيخ غوما من حكمهم الذي أصدروه في حق أهل الصحراء فقالوا: «الشيخ شيء آخر. يتمتع بقلب رقيق برغم صرامته. يرفق بالحيوان ويحنو على الأشجار. ينصر الضعيف ويقف في وجه البطش. يحب الأرض ولا يحتقر الزراعة والمزارعين مثل هؤلاء الأجلاف». يتضاحك الحاضرون ويستطرد المتحدث: «يجمع حكماء الواحة أن الشيخ غوما نسيج وحده من البشر. يجزمون أنه الوحيد الذي يخفي وراء قناعه أشياء غير الخجل من الهزيمة والوقاحة في احتقار المزارعين مثل بقية أهل الصحراء. يخفي أشياء تخفى حتى على الحكماء فيؤكد الخبراء في التعامل مع الدنيا الآخرة أن...» هنا يلتفت المتحدث يمنة ويسرة ويخفض صوته ويهمس في أذن أقرب جليس: «... أن صلته بمعشر الجن وثيقة!» ثم يشير من طرف خفي إلى آثار الرماد المنتشرة في العراء الذي كانت تتخذه القبيلة مقرّاً لها ويضيف محاولاً أن يضفي على حديثه غموضاً تعوّد الأهالي أن يصبغوا به لغتهم عندما يتحدثون عن عالم ما وراء الطبيعة خاصة عندما يتعلق الأمر بالجن: «... إنه من معشر هؤلاء. هذا أكيد. وما علاقته بمهمدو إلاّ دليل على ذلك». يغرق البعض في الضحك، ويلتزم الآخرون الصمت لأن الأغلبية لا توافق، ربما، المتحدث رأيه وإن آمنت بأن الرماد الذي خلفته القبيلة عند حرق الأكواخ قبل هجرتها منذ شهور قد تحوّل إلى مستوطنة يسيطر عليها العفاريت بالليل: يتنابزون بالألقاب البذيئة، ويتدافعون يطارد بعضهم بعضاً بالسكاكين التي

تلمع تحت ضوء القمر، ويغنون ـ في بعض الأحيان ـ. ويرقصون ويقيمون الأفراح. وأصبح الأهالي يروضون أنفسهم الآن على التآخي معهم ومراعاة تقاليد حسن الجوار خاصة وأنهم لم يحدث حتى الآن أن أصابوا أنسياً واحداً من أهل الواحة بأذى. فحاولوا أن يتعايشوا معهم بدل طردهم بالتسابيح ومحاربتهم بالآيات القرآنية!

بل ان أهل الواحة اكتشفوا مزايا في معشر الجن افتقدوها في معشر الأنس. وتروى قصص كثيرة تمجد هذه الميزات منها قصة ذلك الفلاّح الطماع الذي وجدوه مخموراً في الحقل، غارقاً في القيء، غائباً عن الوعي، فأخذوه إلى المستوطنة، واستضافوه في بيوتهم فوجد نفسه، عندما استيقظ وعاد له الوعي، نائماً في فراش وثير لم يحلم بمثله من قبل، تحيط به الوسائد الناعمة، والبسط العجمية الفخمة التي تغوص فيها أقدام الجواري الحسناوات الغاديات الرائحات في ردهات القصر ذي الجدران المزينة بزخارف ثرية مطعمة بالذهب والفضة ونقوش دقيقة مطرزة بقطع الجواهر التي تتلامع وتتلألأ تحت أضواء أسطورية تنبعث من كوة في السقف.

ويروي الفلاح أن جارية حسناء تقطر الدماء من وجنتيها سارعت إليه بمجرد أن صحا من غفوته وجاءت بطست ذهبي اللون وطفقت تغسل رجليه القذرتين الملوثتين بالروث والطين وهي تبتسم إبتسامة رقيقة ساحرة. لم يصدق في البداية ولولا قدماه الملوثتان بالطين وروث الحمير والماشية لما صدق أبداً أن يكون هذا المخلوق المشقق القدمين واليدين الذي يطير رأسه الصداع هو نفسه الذي يرقد الآن في الجنة بلباسه الوسخ وجسمه الذي تعلوه طبقة من العفن فاستغرب أن يلقي به الله في رحاب الجنة دون أن يقدم في مقابل ذلك عملاً صالحاً يذكر. ولكنه ما لبث أن طمأن نفسه قائلاً ان رحمته واسعة ويصطفي من عباده من يشاء كي يغدق عليهم نعمته كما يؤكد أغلب الفقهاء.

وفجأة وجد يده تمتد دون مقدمات إلى صدر الحسناء وتتحسس نهديها النافرين بحركة وقحة دهش لها هو نفسه فيما بعد. ويبدو أن جذوة اللاقبي في رأسه لم تكن قد انطفأت بعد فدفعته إلى القيام بهذه الحركة التي بدت طبيعية ولكن الصبية الفاتنة انسلت من بين يديه برقة دون أن تفارق الإبتسامة الشفافة شفتيها القرمزيتين فرأى الفلاح شيخاً مهيباً يجلس خلفها في الزاوية يحيط به فريق من الغلمان يتعاونون على تحريك مروحة هائلة منصوبة فوق رأسه صنعت من

ريش ألف نعامة.

ظل الشيخ الوقور الرافل في ثياب مزركشة، فضفاضة، تحيط به الوسائد الوثيرة، يرمقه طوال الوقت بنظرة كسولة لا مبالية كأنه يسبح بتفكيره في الملكوت.

لم ينطق بكلمة.

ثم قرروا أن يجعلوه يرى كيف يكون الكرم.

جاءت أرتال الحسناوات يحملن أطعمة زكية الرائحة في أطباق من الذهب الخالص. صففن الأطباق في دائرة بين سريره ومقعد الشيخ الجليل الذي استمر يراقبه في صمت بنظرته الغائبة.

دعاه إلى الطعام بإيماءة من عينيه فقفز الفلاح وقد سال لعابه من فرط الجوع ومتعة الرائحة.

هنا حدث ما قلب رأي الفلاح في الجنة.

إذ وقعت عيناه بالصدفة على قدم إحدى الجواري فرأى أن قدمها هي حافر حمار وليست قدم إنسان فعرف على الفور أن الله لم يقرر استضافته في الجنة بعد وما يراه أمامه الآن ليس جنة الأنس وإنما جنة الجن .

في البداية غمرته الرهبة وسكن قلبه الهلع ولكن ما لبث أن قرر أمراً فغسل يديه وتذوق من طعام الطبق الأول: طعام أسطوري له نكهة خفيفة وطعم يفوق الوصف. ثم تذوق من كل طبق بضعة لقيمات، وفي كل مرة يستطعم الطعام ويلوكه لحظات متلذذاً محاولاً أن يتذكر متى وأين ذاق طعماً لمثله. في ذلك الوقت كان الشيخ يرمقه وقد رفّت على شفتيه ابتسامة خفيفة كأنه يقرأ ما يدور في خاطره في تلك اللحظة. ولكن الفلاح الماكر كان قد بيّت أمراً وانتظر الفرصة المناسبة لتنفيذه، خاطب نفسه قائلاً: «ما دمت طردت من جنة الله ووجدت نفسي في رحاب الجن فلا بد أن أنهب حصتي من هذه النعم. لا يليق بالرجل الحاذق أن يعود من المولد بلا حمص!».

قرّبت نحوه نفس الحسناء النافرة النهدين ذات الابتسامة الشفافة الساحرة

طبقا ذهبيا فخما مزيناً بنقوش بديعة ومرصعاً بالجواهر الوامضة تحت الضوء وقد تدلت من جانبيه حلقتان ذهبيتان كبيرتان فقرر الفلاح الجشع أن ينفذ خطته على الفور فأمسك الطبق من عروتيه الرائعتين وصاح بأعلى صوته: «بسم الله الرحمن الرحيم...» وانطلق في قراءة مكسرة لآية الكرسي فخسف به الجن الأرض وخطفوا من أمامه القصر والأطباق الشهية والمخدع الوثير وطيروا الحسان وريش النعام ونكلوا به محاولين أن يخلصوا الطبق الذهبي من بين يديه الجشعتين ولكن الفلاح العنيد استمات في الدفاع عن غنيمته وظل متشبثاً بالحلقتين الذهبيتين متمتماً بالآية ومعشر الجن تلوح به في الفضاء، وتعود به إلى الأرض لتخليص متاعها من قبضته الحديدية.

في النهاية وجد الفلاح نفسه ملقى فوق الرماد الذي خلفته خيمة الشيخ غوما وخيوط الشمس الأولى تربت على كتفيه. جلس في العراء ونظر حوله في ذهول وغمرته السعادة لأن ما حدث ليس حقيقة وإنما مجرد كابوس. وكم كانت دهشته عظيمة عندما هم بالانصراف فوجد إحدى الحلقتين الذهبيتين معلقة في سبابة يده اليمنى!

وبالطبع وجد من بين الأهالي من طعن في رواية سليم الدنداني فقيل انه ليس بغريب على فلاح مدمن مثله أن يتخيل ما لا يراه الآخرون. لأن اللاقبي هو الذي يقوده الى عوالم ما وراء الصحراء، ويشحذ مخيلته فتنسج قصصاً لم تحدث. أما الحلقة الذهبية النفيسة التي يتخذها سليم دليلاً قاطعاً على صحة قصته فقال هذا الفريق المشكك أن الدنداني عثر عليها في الرماد بعد أن صحا من سكرته وهي من مخلفات قبيلة الشيخ غوما التي غفل الجن عن الإستيلاء عليها!

* * *

ظلّ الشيخ غوما مخلصاً لأنقاض نخلته، ولا يقضي القيلولة إلا تحت رأسها المقطوع الذي لا تبخل عليه النخلتان القبليتان بالهدهدة والحنان. فقرأ الشيخ في هذا المشهد أنبل مشاعر الأمومة والرحمة وقال في نفسه أن الطبيعة أكفأ من البشر في التعبير عن الحب. وكثيراً ما يقف أمام هذا المشهد الحزين، يتأمل الأعجوبة، ويفكر في المعجزة التي تجعل النخلتان المتقاطعتان تنحنيان في جلال، باكيتان، مسدلتا الأعراف، لتمنعا جذع الأم المقدسة من السقوط إلى الأرض وتحيطا نهاية الساق عند الرأس المقطوع المجرّد من الجريد في محاولة مستميتة

لإيقافه على قدميه وبعث الحياة فيه من جديد .

فرأى الشيخ في هذا المشهد رمزاً أبدعت الصحراء في صنعه فنافست بموهبتها أقوى شاعرات القبيلة وأكثرهن كفاءة في اللعب بالرموز في قصائد الغزل أو الهجاء أو تمجيد البطولات الحربية!

في رقبة النخلة ـ أسفل الرأس المقطوع ـ تتدلى راية بيضاء جاء بها الفلاحون وعلقوها في أعلى الجذع بعد انتحار مرزوق بأيام قليلة معبرين بهذا العمل عن مشاعر الأسى والقداسة ومقدمين البرهان الذي يزكي النخلة ويؤهلها للدخول في قافلة الشهداء والأولياء . بل ان إيمان البعض بأن أم النخيل ما هي إلا وليّ جعلهم يرشّون الجذع من الوسط بالجير فيبدو الساق المصروع للمشاهد مطوقاً بحزام أبيض يضفي عليه مهابة الأضرحة المقامة على قبور الأولياء . وجاءت الفلاّحات بمباخر البخور وطفقن يتبركن ويتمسحن باكيات بجذع النخلة ـ طالبات من الأم الرحيمة أن تشفع لهن عند الخالق العظيم فيرق قلبه ويشفيهن من العقم أو يقي أولادهن من داء الجدري والبرص ويحميهن من كيد الحاسدات وتآمر العفاريت على حياتهن . وبلغ التطرف والطمع ببعضهن أن توسلن جثمان النخلة بأن يشحن أزواجهن بالفحولة ويكفيهم شرّ اللاقبي .

منذ أسابيع ضبط الشيخ إحدى هؤلاء النسوة . وجدها راكعة على ركبتيها تحت الجذع السفلي ، الذي تغزوه جيوش النمل ، تحرّك الجمرات في المبخرة لتنطلق سحب البخور وترفع قبضات من التراب وتغمر بها رأسها الحاسر من العصابة . وكانت طوال الوقت تلهج بالأدعية وتتمتم بالمطالب المخجلة . وقف يراقبها بفضول قبل أن تنتبه لوجوده وتختطف عصابتها وتفر لتختفي خلف الأحراش .

عرف غوما فيما بعد من الأهالي أن المرأة مصابة بمرض الشبق ، أرسلت زوجها الأول إلى القبر متأثراً بالوهن وفقدان الشهيّة وسقط زوجها الثاني فريسة المرض أيضاً بعد أن امتصت قواه ورجولته حتى عجز عن التردد على الحقل واكتسحه الشحوب وأصبح هيكلاً عظميّاً مهدداً بأن يلحق بزوجها الأول .

وأرجع الأهالي السبب إلى مخدع تلك المرأة النهمة التي لا ترتوي من الرجال . وقيل في الواحة أنها قامت بزيارة للمغارة وطلبت من العراف أن يتدخل لإنقاذ الزوج الثاني ومنحه الرجولة . ولما أعتذر مهمدو عن تنفيذ رغبتها الجنونية وحاول

أن يقنعها بأن ذلك لا يدخل في إختصاصه تهجمت عليه بالسباب، وقالت انها تعرف أنه يستطيع أن يفعل المعجزات عندما يريد ولكن مهمدو تذرع بأن الشيخوخة لا تسمح له الآن بالإسراف في مزاولة المهنة فقامت المرأة غاضبة وقالت ان الجاروف على حق إذ دفع أعوانه لرجمه بالحجارة!

وفي رواية أخرى أنها أضافت شامتة قبل أن تنصرف: «آه لو لم يهرع ذلك الشيخ المخيف بسوطه الناري وينتزعك من بين أيديهم. كانوا مزقوك إرباً إرباً يا عجوز النحس!».

في البداية رأى الشيخ في اقتحام الفلاحين لمأواه إزعاجاً لراحته في القيلولة وعدواناً على حياته الخاصة يمكن أن يرتقي إلى المؤامرة. ولو كانت باتا ما زالت تتمتع بجمالها الذي يمنحها السلطة على قلوب الفلاحين لقال ان أصابعها وراء هذا الغزو. ولكن سلاح باتا نزعه الوباء الذي نهش وجهها وأكل لحمها مما اضطرها إلى أن تخفي ذلك الوجه ـ الذي كانت تتباهى به وتعتبره مصدر قوتها ـ خلف قطعة زرقاء من القماش كي تحجبه عن أنظار الفضوليين والشامتين حتى تشبهت بالرجال في ارتداء قناع القماش فطاردها الأطفال بين الأكواخ وهم يصفقون ويرددون باستفزاز: «باتا راجل. باتا راجل!».

قام غوما بنزع الراية البيضاء من عنق الشجرة الطريحة وذهب في جولة الى السوق وعندما مر على المكان في المساء في طريق عودته إلى حي الأكواخ تحت سفح جبل الرملة الجنوبي وجد أصابع الفلاحين قد غافلته في غيابه وزينت رقبة النخلة بالراية البيضاء. نزعها مرة أخرى وألقى بالخرقة في عين الكرمة. وفي اليوم التالي وجد الراية ترفرف على رأس الشجرة!

استسخف أن يستمر في منازعة هؤلاء المعاندين الأوباش وقال في نفسه ـ أنهم ربما كانوا على حق ـ في اعتبار أم النخيل ولياً من أولياء الله برغم أن ذلك يهدد بتحويل المكان إلى مزار للعوام يؤمه كل من هبّ ودبّ وهو ما سيؤثر على خلوته، ويشكل خطراً على عزلته!

إن جذع النخلة المتكىء على النخلتين المتقاطعتين مأواه الوحيد الآن.

فبعد أن أذن لقومه بتشييد أكواخ الجريد في السهل الرملي الجديد الملاصق لمرتفعات الرملة استسلم غوما ـ تحت ضغوط آهر وخليل ـ وقبل أن يبنوا له كوخاً

تفصله عن كوخ الشيخ آهر مسافة لا تزيد عن المائة خطوة. انتقل آيس إلى المأوى الجديد وبقي أميس - ابن أمود - في بيت آهر. ولكن غوما لم ينم ليلة واحدة في هذه الزريبة حتى اليوم. وعلّق على السكن متهكماً: «هذه زريبة تصلح لإيواء الأغنام يا شيخ آهر ولا يليق بأهل الصحراء أن يحشروا أنفسهم في هذا الحبس وقد تعوّدوا على العراء الفسيح وفضاء الله الواسع».

ظل الشيخ يلتحف بالسماء ويستلقي في العراء المجاور للكوخ بالليل ويمضي إلى أنقاض أم النخيل بالنهار ويقضي القيلولة تحت ظلال النخلتين القبليتين الحنونتين. استمرّ مخلصاً لرفات نخلته الهيفاء!

في حين لم يمل آهر من أن يردد في مجالسه مع الوجهاء في القبيلة: «شيخنا يعاني من الحنين إلى الفيافي. حاله يصعب على القلب. ولكن لا حيلة ولا وسيلة. إذ كيف نستطيع أن نؤمن له الحياة في الصحراء طالما استمرت سماؤها على بخلها بالماء؟ أمود المكابر قام بمحاولة بطولية وضحّى بنفسه لإثبات أن الحرية لا توازي حياة تكفلها محاربة ألسنة الرملة المتحوّلة من مكان إلى آخر في واحات الشمال. وفضّل أن يجازف ويقدم نفسه قرباناً كي يعطي الدليل على أن الموت عطشاً في الخلاء أهون من إذلال الواحات أو تسلط رؤساء العمّال في المدن الذين يدفعهم الجنون كي يحاربوا الرملة بأيد عارية ويصرّوا على إبقاء الطريق في خط التماس المتوارث من عهود العثمانيين والطليان. أمود على حق. والاعتراف له الآن فضيلة. أم أن الجماعة يرون رأياً آخر؟».

لم يجرؤ أحد من القبيلة حتى الآن أن يصرّح علناً بأن أمود لقي حتفه في الصحراء برغم يأسهم من عودته ويقينهم جميعاً بأن الشاب المتمرّد كان ينوي الإنتحار. ولكن الشيخ غوما منعهم من مجرد الخوض في موضوع تلك الرحلة. فإذا جاء ذكر أمود في مجلس يحضره الشيخ رمق المتحدث بنظرة إرهاب فيتوقف فوراً. وإذا ترددت شائعة بشأن أمود تشكك في أمر رحلته لاحقها غوما وبحث عن مصدرها وأوصى لقائلها ببعض التحذيرات فتموت الشائعة على الشفاه.

مع مرور الوقت فهمت القبيلة أن رحلة أمود الغامضة الى البيداء «موضوع ممنوع» يقيم عليه الشيخ بإيماءاته وتلميحاته حظراً واضحاً.

وتروى في النجع حادثة شهدتها الأكواخ منذ شهور عندما جاء منصور

برجوج من واحته خصيصاً ليمثل بين يدي الشيخ ويقدّم - عن حسن نية - تعازيه الحارّة في صديقه الحميم.

استقبله غوما في مقر إقامته النهاري - تحت النخلة - فتجاهل عبارات المواساة التي تفوه بها منصور وحضّرها خصيصاً ليلقيها في هذا اللقاء فوجه الحديث وجهة أخرى كعادته عندما يريد أن يتجنب الموضوع. قال ان مزاج الطبيعة لا يطمأن له. وما الموجات الأخيرة المتناقضة إلاّ دليل على تقلب هذا المزاج.

دهش منصور ولم يستطع أن يدرك ما يلمّح إليه الشيخ خاصة وأنه يجهل أسلوبه في الحديث كما لم يحذره لا أمود في السابق ولا آهر الآن بما يدل على غرابة في أطوار الشيخ فدفعته سذاجته أو فلنقل حسن نيته الى المعاندة والعودة الى الموضوع بإصرار طفولي. تبادل نظرة سريعة مع آهر - الذي حضر الجلسة - وقال ببراءة: «رحمه الله. كنت أعرف أنه سيفعل ذلك. أو فلنقل انه أوحى لي بذلك بنفسه عندما ودعني في السوق عند زيارتي للواحة المرة الماضية. قال انه تراجع عن تنفيذ قراره في العودة إلى واحات الشمال للبحث عن عمل بعد انهيار مشروع السانية وضياع الحقل فرأى في الحلم جبال الرملة تزحف على الدنيا وتكتم أنفاسه. هو يرى أن لا فائدة من معاندة الرملة لأنها سوف تبلغ هدفها في النهاية طال الزمان أم قصر. حدثني بذلك منذ زمان عندما دخلنا في عراك مع لسان رملي عنيد تحت ربوة رأس الغرنوق...».

هنا شعر الضيف بأن الشيخ يعاني من الضيق ويكتم أمراً فلاذ بالصمت واستنجد بآهر قبل أن يعلن غوما «لا أعرف عن أي مرحوم تتحدث. إذا كنت تقصد أمود فإنه حي يرزق وما زال يطارد الغزلان في منفاه الذي يحسده عليه كل من تراه من هؤلاء البلهاء الذين لا يريدون أن يتوقفوا لحظة واحدة عن الثرثرة كأسوأ النساء. فمن أين لك بهذه المعلومة بالله إن لم يتبرع بها هؤلاء متعمدين تضليلك؟ أنا أراهن على ذلك...».

ثم نهض واقفاً وانفرد بآهر وأمره بأن يعتني بالضيف ويتدبر كبشاً لتقديمه على العشاء وانطلق باتجاه السوق في خطوات واسعة.

لم تغب هذه الحادثة عن أذهان الوجهاء حتى اليوم فاستنكروا أن ينبري آهر الآن ويجاهر بمصرع أمود معتمداً على روايات الرعاة الذين أكدوا أنهم رأوا جمله

الموسوم بعلامة + على الفخذ الأيمن يرتع في البرية اليابسة في «عوينة ونين»، وهو نفس الجمل الذي قدمه له آهر عند الرحيل. تبادلوا النظرات ورأى الشيخ خليل أن النبل يقتضي أن يتصدّى لآهر ويدافع عن موقف الشيخ غوما أثناء غيابه فقال في نفسه: «حقاً أن آهر غشيم». ثم بصوت عال أمام المجمع:

ـ لا يجوز أن نبني أحكامنا على الأوهام وأقوال الآخرين. وليس من حقنا أن نسبق الأحداث ونتنبأ بمصير الرجل الذي لا يعلمه إلا الله.

فوافقه أغلب الحاضرين بهمهمة الاستحسان وهم يهزون العمامات المنقوشة.

تشجّع خليل وتحمّس حتى أثار دهشة أغلب الحاضرين وهو الرجل المعروف بصمته وندرة كلامه فأضاف معقباً على آهر:

ـ أمّا حنين الشيخ للصحراء فمحنة عامة. من منا لا يحن إلى الفضاء والحرية برغم أننا نحاول أن نخنق هذا الحنين ونتظاهر بأن الأمور تسير على ما يرام؟ الحرمان من الصحراء جحيم كتب علينا جميعاً أن ندخله ونذوق طعمه وربما كان الشيخ أكثرنا شعوراً به. والخيمة التي يرى فيها رمزاً للجنة المفقودة لن تأتي له بالخلاص برغم أنها قدمت العزاء.

سرت الهمهمة وتقاربت العمامات وتمتمت الشفاه وفاز خليل بالإعجاب وسدد بذلك ضربة موجعة لخصمه فنكس آهر رأسه وتظاهر بالإنشغال في بناء مدينة وهميّة على الأرض.

سرعان ما وصلت أخبار هذه المعركة إلى آذان الشيخ فهنأ خليل في نفسه وتعمّد تجاهل الموضوع حتى لا يحرج آهر ويعطي للأمر حجماً لا يستحقه.

* * *

في تلك العشية وقف الشيخ لحظات وهو يصغي لغناء الجنادب في الأحراش المجاورة، فسمع دبيب الفلاحين في الحقول وأصواتهم الكسولة وهم يروضون بعض الألحان الرتيبة ليعزّوا بها أنفسهم أثناء سحب المياه من السواني أو خلال تمزيق وجه الأرض بالمعاول والفؤوس.

نفض الغبار عن لباسه وتوجه إلى الحي القديم.

في ساحة السوق شاهد الصبية يتجمعون عند السور المؤدي إلى طريق الشمال يتدافعون بالمناكب ويتخاطفون جريدة.

أبصر آيس بينهم.

اقترب من بائع خضراوات كفيف البصر يصيح للترويج لبضاعته واستدراج الزبائن لشراء خضراواته مستعملاً استعارات وأوصاف جسورة رأى فيها غوما إعتداء على الأخلاق فتحاشاه وتقدّم من بائع الفحم فجاءه آيس وبادره قائلاً:

- في الجريدة يوجد إعلان عن النبع!

هتف بغبطة مفاجئة:

- حقاً؟!

تقدّم من حلقة الصبية دون أن ينتظر جوابه واختطف الجريدة من بين أيديهم. انفضوا من حوله وتفرقوا في مجموعات ثنائية وثلاثية انصرفت كل جماعة في إتجاه.

بسط الشيخ جريدة «فزّان» أمامه وبحث عن الاعلان في نهم. وجده في صفحة الاعلانات (وهي ملحق من ورقة واحدة يتوسط الجريدة الأسبوعية الصادرة في عاصمة الصحراء من ثماني صفحات إذا استثنينا (الملحق نفسه):

«المملكة الليبية المتحدة[1]

وزارة الزراعة والثروة الحيوانية

مصلحة المياه الجوفية والآبار بولاية فزان

اعلان عن مناقصة عامة لحفر نبع لقبائل البدو

التي تستوطن واحة آدرار

تعلن مصلحة المياه والآبار بولاية فزان عن طرح مناقصة عامة للشركات العاملة بالمملكة لحفر نبع ماء لقبائل البدو التي استوطنت في السنوات الأخيرة بواحة آدرار وذلك تحت الشروط التالية:...».

انتهى من القراءة فطوى ملحق الاعلانات بعناية ودسّه في جيب القميص الداخلي تحت الثوب الفضفاض وصعد الطريق المتعرج الذي يخترق الأزقة الضيقة

ويتلوّى كالأفعى وهو يتسلّق الجبل.

(٢)

عقب انتحار مرزوق ورحيل أمود عانت السانية من سكرات الموت حتى أصبح الشيخ يتجنّب المرور على الحقل كي لا يرى الجداول البائسة المغمورة بالتراب والأعشاب اليابسة التي تتدلى منها ثمار ضامرة امتص العطش نضارتها وسحب منها الحياة فقرر أن يتخلّص منها بأسرع وقت. باعها لمختار الساطور بعد مفاوضات تدخل فيها القاضي الزبرجداني وتوسط لعقد الصفقة بينهما فخسر غوما بمقتضاها نصف المبلغ الذي اشتراها به في البداية من الشيخ الجاروف برغم تنازله عن اللوازم والمعدات وإدخالها ضمن الثمن المدفوع.

وبرغم الخسارة فإن الشيخ حمد الله وهنأ نفسه على الصفقة وقال في سرّه وهو يتربع تحت أنقاض نخلته ويراقب الغروب: «لا يستطيع ابن الصحراء أن يدّعي التفوق الى حد يجعله يربح صفقة مع أهل الواحات والمدن مهما كان صفيقاً وحاذقاً. ولكني كسرت القيد وتخلصت من الكابوس. يكفي أني تحررت. هم لا يعلمون أن تحرري من تلك السانية المشؤومة هو أكبر نصر. فليعتقد البلهاء أنهم ضحكوا عليّ. أنا الذي كسبت الصفقة!».

ثم نهض واقفاً واقترب من الجذع المزين بحزام الجير الناصع وتناول الراية البيضاء المعلقة في الجزء العلوي وقرأ عبارة كتبت بخط ركيك أخضر اللون: «لا إله إلا الله». ثم استمر: «.. لا شك أن الشيخ الخبيث عبد الجليل الجاروف يفرك يديه في مجالسه الخاصة ويقهقه شامتاً وهو يحتسي اللاقبي ويردد بين الحين والآخر: «هذا طبيعي. البدوي لا بد أن يخسر مع ابن البلد. الخسارة مكتوبة على جبين أهل الصحراء.. هيء - هيء - هيء. البدو يتطاولون في الزراعة. هيء - هيء - هيء. هذا من علامات القيامة!». المجرم! يدس نفسه تحت لحاف امرأته الصبية كأجبن مخلوق ويشجع نفسه باللاقبي كي يفصح عن رأيه خلسة! تنقصه الرجولة ليعلن، لأنه يعرف أن ثمة سوطاً مفتولاً من ألسنة اللهب ينتظر كي يدلك ظهره!».

ولكن شعوراً مجهولاً بالقلق باغته في تلك العشية وظل يضايقه حتى آوى إلى فراشه في العراء فاستلمه الأرق ونكّل به حتى آخر الليل.

في الصباح اتخذ قراراً.

لم تمض أيام حتى نفذ قراره ففوجىء النجع والواحة على السواء بالشيخ غوما يرتدي أفخر لباسه فيمشي آهر على يمينه وخليل على يساره يتهادى في السوق كالطاووس ليؤجر أول سيارة متجهة إلى عاصمة الصحراء.

وبرغم ما أثارته هذه الرحلة المفاجئة من البلبلة إلاّ أن أحداً لم يستغرب أن يظل الهدف من ورائها مجهولاً للجميع. ربما حتى للشيخين آهر وخليل اللذين رافقاه في الرحلة ـ طالما عوّدهم غوما على إحاطة قراراته ونواياه بالسرّيّة.

لم يعلموا باستقبال الوالي شخصيّاً لهم إلا بعد عودة الوفد من رحلته ظافراً! أشرفوا على جوهرة الواحات في قلب الليل فبدت أضواؤها في الظلام كأنها انتزعت كل النجوم من السماء ونثرتها على وجهها الراقد في قلب العراء.

قضوا ليلتهم على مشارف العاصمة في الخلاء الرملي الغربي ودخلوها عند الفجر مع صياح الديكة ودبيب الحركة.

قضوا ليلتهم الأولى في الفندق الوحيد الواقع بشارع «النصر». وفي اليوم التالي أصدر سكرتير الوالي أوامره بترتيب إقامتهم وتنظيم إعاشتهم على حساب حكومة الولاية فهرع الموظفون ونقلوهم الى الاستراحة وأحاطوهم بمراسم الرعاية بمجرد أن علموا باهتمام الوالي. ولم يكن من الصعب على الشيخ غوما أن يتناهى إلى سمعه همس هؤلاء الخدم وهم يتقافزون حولهم، يلبون طلباتهم ويهبون لتلبية رغباتهم ويسرعون إليهم بأدنى إشارة فيقولون فيما بينهم: «إنهم من أعيان قبائل الصحراء. يقال ان أحدهم صديق الوالي ورفيقه في معركة محروقة أيام الجهاد ضد الطليان». وقد سمع غوما ـ فيما بعد ـ من أكثر من مصدر مسؤول في الولاية إلى أن رصيد الوالي الذي أهّله لتولي المنصب الرفيع يرجع الفضل فيه إلى دوره في معركة محروقة. فدهش غوما لهذه الكذبة لأنه حضر معركة محروقة من أولها ولم ير فيها ظلاً لسعادة الوالي. ولكن غوما الذي عرف سرّ اللعبة منذ بداية الاستقلال سكت احتراماً للشيب المهيب في لحية الوالي ورغبة في ألاّ يفسد زيارته بأمور تتعلق باقتسام الغنائم وتوزيع المناصب على أسس قبلية كما حدث عقب الاستقلال مباشرة. ولم يكن من المدهش أن يفوز العملاء والمتعاونون مع الطليان بنصيب الأسد في المناصب طالما فوّضهم الملك بالإشراف على التعيينات وتوزيع

الأدوار والوظائف فكان نصيب الوالي ولاية فزان ليس لأنه اشترك في معركة محروقة ولكن بسبب حظوته عند الملك وعلاقته «بالعروة الوثقى» عندما كان يقيم في مصر ويقضي شهور الصيف مع حاشيته على شاطىء البحر في الوقت الذي يكتوي فيه المجاهدون بالنار: نار من مدافع الطليان ونار من شمس الصحراء. فبأي حق يدعي هؤلاء الخدم والحشم أمجاد الجهاد لواليهم العتيد لو لم تكن العدالة مضطهدة في هذه الدنيا؟

نظم لهم سكرتير الوالي برنامجاً مكثفاً لزيارة كبار المسؤولين: استقبلهم رئيس المجلس التنفيذي أولاً ثم رئيس المجلس التشريعي في نفس اليوم. وفي الأيام التالية شملت الزيارات أهم نظّار الولاية: ناظر الزراعة والثروة الحيوانية، ناظر المعارف، ناظر المواصلات والطرق ومدير البوليس وحكمدار القوات المتحركة.

وتوّجت هذه السلسلة بمقابلة سيادة الوالي الذي أقام حفل غذاء على شرفهم دعا إليه رئيسي المجلس التنفيذي والتشريعي مفضلاً أن يستقبلهم في قصره في جلسة خاصة بعيداً عن جفاف المكاتب الإدارية ورتابة الروتين الرسمي وقبل كل شيء «كي يتمكن من التحدث مع الشيخ غوما من القلب إلى القلب ويستعيد ذكريات الجهاد المجيدة وخاصة معركة محروقة» كما طاب له أن يعبّر حرفيّاً.

أحاط طابور السيارات بالقصر المشيّد على ربوة مرتفعة تقع في قلب العاصمة، وبدأت طقوس الوليمة على طاولة إفرنجية طويلة مزينة الحواشي بنقوش يدوية دقيقة صففت على جوانبها طوابير من الكراسي ذات المساند الطويلة محفورة بالنقوش اليدوية أيضاً.

جاء الوالي بلحيته الكثة التي يغزوها البياض ورحب بهم بحرارة ثم انبرى يثني على دور غوما في الجهاد ضد الطليان في الشمال وفي صد الغزاة الفرنسيين من الجنوب. وقال يوجه كلامه لرئيسي المجلسين: التنفيذي والتشريعي أنه لا يستطيع أن يتصوّر حال فزان لو نجح الفرنسيس في اختراق غات والنفاذ إلى طريق العوينات في ذلك العام عندما تولى غوما التصدّي للجيوش المعادية ومحاصرتها في غات مدعوماً برجال الصحراء الأبطال. ثم عرّج على ضرورة توطين البدو وأكّد حرص صاحب الجلالة بنفسه على وضع هذه النية النبيلة موضع التنفيذ خاصة بعد كارثة الجفاف التي خيمت على الصحراء الكبرى في السنوات الأخيرة.

هرع الخدم والحشم يقدمون الأطعمة ويتسابقون في جلب الأطباق المتوّجة بمختلف اللحوم.

لم تخل وليمة الوالي في ذلك اليوم حتى من لحم الأسماك.

ثم وجه الوالي السؤال إلى غوما وهو يعبث بلحيته ويلوك في كسل قطعة من اللحم:

ـ أرجو أن تكون محادثاتك مع المسؤولين في الولاية قد أثمرت. أقصد إلى أي حد كانوا إيجابيين في تلبية مطالبكم؟

قال غوما وهو يمسح فمه بمنشفة ناعمة وينقر بأصابعه على طرف الطبق:

ـ إذا شئت الصراحة فلم نجن حتى الآن سوى الوعود برغم تواضع مطالبنا. وعدونا بجنات عدن التي تجري من تحتها الأنهار فقلت لهم أننا قوم قنوعون ولا نريد من أنهار الجنة سوى نبع صغير في واحة ادرار يكفي أولادنا شر العطش ويقيهم مرارة الجوع.

ضحك رئيس المجلس التنفيذي وابتسم الوالي بمرح. انتهز غوما الفرصة فقرر أن يخسف الأرض بناظر الزراعة والثروة الحيوانية الذي اشتكى من ندرة الموارد المالية ملمّحاً بذلك الى صعوبة تنفيذ الحفر في الوقت القريب. قال:

ـ ناظر الزراعة استبعد إمكانية الشروع في المشروع ولَمح إلى بؤس الخزانة فقلت له بالحرف الواحد: «تعتقدون أننا نجهل ما يدور في البلاد لمجرد أننا منفيون في صحراء الرملة. إننا نتابع كل كبيرة وصغيرة وتصلنا آخر الأخبار التي زفت أخيراً بشرى تفجر ينابيع أرضنا الطيبة بسيول البترول. وأنا لا أرى بأساً إذا تكرمتم وسمحتم باستغلال بعض عوائد هذا السائل العجيب في تفجير نبع صغير من الماء يروي العطشان ويسقي الجدول ليسد رمق الجوعان» فما كان من الناظر إلا أن استلقى في كرسيه إلى الوراء وضحك طويلاً واستمر يضحك حتى ودعني في الباب فلم أعرف معنى تصرفه هذا: هل هو من قبيل الاستحسان أم من باب الاستنكار؟

غرق الحاضرون في الضحك.

تفضل الوالي أيضاً وضحك بصوت خافت.

قال وهو مستمر في مداعبة لحيته:

- من باب الاستحسان بلا شك. أؤكد لك أن دعابتك أعجبته الى حد أنه لن يتردد في أن يقضي الليل يبحث عن بند في الميزانية ليسارع في تنفيذ المشروع.

ولكن غوما رأى أن يرمي بسهم آخر ليضمن حفر البئر نهائيا. قال:

- لم يفتني على أي حال أن أقول له قبل أن أودعه على عتبة الباب أن الطريق إلى طبرق مفتوح. وإذا اضطرني الأمر فسوف أرفع أمري إلى الملك وأنا على يقين أنه لن يردني خائبا!

تضاحك الجمع. ولكن الوالي لم يضحك. اكتفى بابتسامة غامضة وهو يرمق غوما بفضول. لقد فهم لهجة التهديد الخفية في كلام الشيخ فأدرك أن الوعيد موجه له بالدرجة الأولى فهنأ غوما نفسه على براعته في إصابة عصفورين بحجر واحد.

استمر يرمقه بإعجاب حتى انكفأ آهر على ظهره وسقط إلى الوراء مع الكرسي. حاول أن ينهض من كرسيه فتشبث لثامه بمسند الكرسي الطويل فتعثر الشيخ وفقد توازنه وانهار مع الكرسي الى الوراء. هرع لمساعدته فريق من الخدم الذين ظلوا يقفون في ردهات الصالة وهم على أهبة الاستعداد لتنفيذ رغبات الضيوف بمجرد إيماءة من رأس أو إشارة من يد فوجدوا في سقوط آهر فرصة لتقديم خدماتهم. أجلسوه الى الطاولة وأحضروا له طستا ليغسل يديه وهو ممتقع الوجنتين.

أثارت هذه الحادثة امتعاض غوما فسدد نحو زميله نظرة امتزج فيها الغضب بالتعاطف.

ساد صمت متوتر قبل أن يحاول الوالي إنقاذ الموقف وإعادة الصفاء إلى الجلسة فقال وهو يرشف طربوش الرغوة الذي يتوج كأس الشاي:

- هل تذكر يا شيخ غوما ذلك الساحر الطريف الذي اشترك معنا في معركة محروقة؟ ما اسمه؟ مصمود؟ هل هو مصمود؟

خرج الشيخ خليل عن صمته وهب لمساعدة الوالي وصحح له الاسم قائلاً:

ـ تقصد مهمدو. اسمه مهمدو!

فتلقف الوالي الاسم وردده عدة مرات:

ـ مهمدو. نعم. نعم. هل تذكر يا شيخ غوما سقوطه في الاسر وعودته إلينا عقب أيام بعد أن استطاع بمساعدة السحر أن ينوّم الحرس ويطلق ساقيه للريح؟

ضحك بوقار ولكن الشيخ لم يشاركه الضحك. قال في نفسه أن الرجل يحاول أن يلجأ إلى الغش لإثبات مشاركته في المعركة المذكورة فسرد تلك القصة التي سمعها من الرواة كي يذر الرماد في عيون الحاضرين وخاصة رئيسي المجلسين ويدعم رصيده في الجهاد.

آثر غوما اهمال سؤاله حتى لا يسبب بتعليقه الحرج لأنه لو حصل وعلّق فلن يكون تعليقه في صالح الوالي على أي حال.

ولكن الوالي تشبث بموضوع الجهاد وسرد عدداً من القصص البطولية المختلفة فاستفز ذلك غوما ودفعه إلى التعليق. أثنى على جودة الشاي والاتقان في تحضيره قبل أن يعلن رأيه في الجهاد:

ـ أنا أعتبر أن المجاهد الحقيقي هو ذلك الذي يرقد بسلام تحت أحجار المقابر أمّا الذين كتبت لهم الحياة ـ أمثالنا يا سيادة الوالي ـ فمن المخجل أن ندّعي البطولة لمجرد إننا أحياء نرزق. ولو سمع رفاقنا الذين استشهدوا لغطنا ونحن نتشدق بالجهاد ونتاجر بواجب حماية الأرض لقاموا من فورهم وبصقوا في وجوهنا. لا شك أنهم يتململون الآن في قبورهم وهم يسمعوننا نثرثر آناء الليل وأطراف النهار ولا نمل سرد مآثرنا المزعومة ـ على حسابهم طبعاً ـ ونحن نحتسي الشاي الأخضر أو نحشو بطوننا بلحم الخراف لمجرد أن الحظ حالفنا وأطلقنا رصاصة طائشة في معركة يتيمة!!

عقدت الدهشة ألسنة الحاضرين وتبادلوا النظرات في وجوم. كانوا يخشون أن يكون هذا الرأي الجسور قد سبب حرجاً لسيادة الوالي. وكان أكثرهم هلعاً رئيس المجلس التنفيذي الذي احمر وجهه وعجز عن النطق فظل فاغر الفم وحدقتاه تدوران في الفراغ ببلاهة الدراويش.

اغتصب الوالي ابتسامة باهتة وقال ملطفاً الجو المشحون:

ـ لا تستغربوا كلام الشيخ غوما فهو معروف بجرأته، برغم أني أجد نفسي مضطراً كي أخالفه الرأي واعتبر أن هذا التطرف من جانبه لا يمكن أن يقل درجة واحدة عن التضحية بالنفس. تطرف يرتقي إلى التصوّف والزهد. فقافلة الشهداء الأبرار هي في رحاب الله ولا تحتاج الى كل هذا التقديس من جانبنا. أنا أرى أن مكافأة الأحياء من المجاهدين واجب بدل البكاء على أضرحة الأموات منهم. نعم. لا يضيرنا أن نكرم الأحياء!

أيده رئيسا المجلسين بهزّ الرؤوس فأنقذ الوالي بخبرته السياسيّة الموقف الذي كان يهدد بتفجير الجلسة وإفساد مراسم المجاملة التي تتطلبها ولائم الولاة.

عند إنصرافهم خرج الوالي وشيعهم حتى فناء القصر. طمأن غوما إلى أن كل شيء سوف يسير على ما يرام وأبقى يده بين يديه طويلاً وتمنى له رحلة موفقة بعد أن انتزع منه وعداً بألاّ يبخل على عاصمة الصحراء بزياراته في المستقبل.

أما الشيخ غوما فقد شكره على الحفاوة وكرم الضيافة كما لم ينسَ أن يثني للمرة الثانية على جودة الشاي.

وكان يمكن حقّاً أن يسير كل شيء على ما يرام إلى النهاية لو لم تقع «حادثة المقهى» التي كدرت الزيارة وتركت في الرحلة أثراً يمكن تشبيهه بالبقعة التي يتركها الزيت على ثوب ناصع كما راق للشيخ خليل أن يشبهها.

أما القصة نفسها فقد رواها آهر على مسمع مهمدو في المغارة بعد عودتهم من الرحلة فقال وهو يمسح دموعه ويتلوّى من الضحك مردداً بين الحين والآخر «شرّ البلية ما يضحك. حقّ ما يقال..»: «.. تجولنا في المدينة على أقدامنا برغم أن سكرتير الوالي لم يبخل علينا بالسيارات فرصد لنا لاندروفر وسيارة أخرى صغيرة لا أعرف اسمها يجلس خلف مقود كل منهما سائق يضع نفسه رهن إشارتنا. ولكن غوما فضل أن يتمشى ليطلق سراح رجليه ويتعب نفسه وهو تحايل ابتكره لمحاربة الأرق في الليل...».

«بلغنا أطراف المدينة وعدنا على أعقابنا حتى أخذنا التعب فقررنا أن نلتقط أنفاسنا ونطفىء العطش فجلسنا في مقهى على الشارع وطلبنا ثلاثة مرطبات. ولا أعرف حتى الآن أي شيطان دفع ذلك السيد ذو اللباس الأنيق أن يسخر منا فسمعته بأذني هاتين يقول بصوت وقح عال مخاطباً زميله الجالس بجواره: «هذه

البلاد لن ترى خيراً ما دام ثلاثة أرباع سكانها يصرون أن يمنعوا العلوم العصرية من الدخول الى عقولهم فيسارعون ليحموا رؤوسهم بالعمامات ويحكموا الرباط حولها بالزمالات الفارغة».

رمقنا بنظرة حاقدة فلكزه زميله ورأيته بنفسي يغمزه بعينه وينبهه الى وجودنا ولكن الشاب الطائش ركب رأسه واستمر في استفزازه: « .. حتى الناحية الاقتصادية توجب منع هذه العمامات. فقل لي بالله ما الفائدة من محاصرة الرأس بعشرين ذراعاً من الكتان الجيد في الوقت الذي يسعى فيه ثلاثة أرباع الأطفال في المملكة عراة يعانون من الجوع؟ آه لو كنت أحتل مكان رئيس الحكومة لاستصدرت قراراً منعت بموجبه هذا الإسراف في استعمال الأقمشة! ثم انظر إلى هذه القمصان الواسعة.. القميص الواحد يكفي لستر عورة نصف سكان هذا الحي! ».

«هنا فوجئت بالشيخ غوما يقفز بخفة الشباب وفي يده يلوح ذلك السلاح الشيطاني المستورد من جهنم وطفق يمزق اللباس الافرنجي الذي يلف به السيد الوقح جسمه البدين. ولم نستطع أنا وخليل أن نختطف السوط من بين يديه حتى إنتهى من عمله.».

عاد آهر للاستغراق في نوبة من الضحك ثم أضاف: « .. استغفر الله. شر البلية ما يضحك. تعمد غوما أن يعبث قليلاً فاكتفى بتمزيق البدلة الافرنجية وترك الشاب عارياً كما ولدته أمه وسط ذهول الجميع. نعم. فعل ذلك بسرعة فائقة فلم يفق أحد إلا والولد العملاق يقف بجوار زميله عارياً يرتعد والعرق يتصبب منه. هنا صاح غوما في غضب: «هذه للذكرى. واحدة فقط من يد مواطن معمم بزمالة طولها عشرين ذراعاً» ».

وألهب ظهر الرجل بلسعة قاسية انبثق بعدها الدم فسقط على الأرض وهو يتلوى ويولول كإمرأة في مأتم! تجمهر المارّة وتجمع زوار المقهى وجاء البوليس وأخذونا جميعاً إلى المركز وفتحوا محضراً للتحقيق. ولكن رجال الوالي قاموا بدورهم في الوقت المناسب وأقبل ضابط برتبة مقدّم قدّم الاعتذار للشيخ غوما وأخذنا في سيارته الى الاستراحة.».

(٣)

بعد شهرين ونصف من نشر الإعلان في جريدة «فزان» استيقظ الأهالي على هدير سيارات الشركة اليونانية وراقبوا قوافل شاحناتها وهي تنحدر من الجبال الشمالية الموحشة بسرعة بطيئة وقد ارتفعت فوقها الآلات والرافعات والحفارات.

دخلت الواحة مثيرة عاصفة من الغبار وتوجهت الى العراء المجاور لمعسكر الجان واتخذت منه مقراً لها برغم تحذيرات الأهالي من مزاج الجن.

ولكن مدير الشركة البدين القصير القامة رفض الامتثال وأعرب علناً عن عدم إيمانه بوجود الجن أصلاً فيئس الأهالي وضربوا كفاً بكف وتنبأوا له بالمصير الأسود. ولكن الفقهاء وجدوا لهم مخرجاً وقدموا فتوى تقول ان النصارى أنفسهم عفاريت تربطهم بالعالم «الآخر» صلات وطيدة، ولهذا لا يستغرب أن يجاوروا معشر الجن في إقامتهم. واتخذوا من اعترافات المدير الرقريقي[٢] البدين وثيقة للتدليل على ما يقولون. فكان كونستانتيس يجيب على تخويفاتهم قائلاً بلغة عربية غاية في الركاكة ورداءة النطق: «جين ما فيش! فيه أنا بس! أنا الجين!». أيقنوا في النهاية أن الفقهاء على حق وكونستانتيس ما هو إلا جنّي حسب اعتراف نطق به بعظمة لسانه!

ولما استصعب الأهالي نطق هذا الاسم النصراني المعوج فقد سارع الرقريقي وسهل لهم الأمر قائلاً وهو يثبت نظارتيه الذهبيتين على أرنبة أنفه:

ـ كولوا لي كونسا! أنا اسمي كونسا! كونسا كفاية! مفهوم؟!.

ثم ذهب واجتمع بالشيخ غوما تحت أنقاض النخلة المقدسة وعاد ليبدأ بناء معسكره من ألواح الخشب التي جلبها من الشمال في سيارات الشحن خصيصاً لهذا الغرض، فانطلق الخبراء الرقريق في أنحاء الواحة، يهيمون على وجوههم ويسعون في الأرض، يختبرون التربة ويعاينون المواقع ويقيسون مساحات الأراضي حتى وصفهم الناس بـ«الفرنجة المجانين الذين لا يعلمون هم أنفسهم ماذا يفعلون!».

ولكن الأهالي لم ينكروا البهجة التي جلبتها هذه الشركة معها وأدخلتها الى حياة الواحة الراكدة. فما أن بدأ المحرّك يهدر في الأطراف الغريبة ـ خلف الغابة ـ

وبدأت الآلات الوحشية تفترس الأديم وتخرق الأرض حتى دبت الحركة وأقبل ابناء القبيلة المهاجرين الى الواحات الأخرى وانخرطوا للعمل بالشركة كسائقي سيارات لاندروفر أو شاحنات أو مجرد عمال أو عاطلين مقنعين عن العمل يتقاضون مرتبات آخر الشهر دون أن يبذلوا جهداً ودون أن يسند لهم عمل يذكر حتى أن الشيخ غوما لم يخف غبطته بعودة شباب القبيلة وقال في إحدى جلساته أنه لم يكن يعلم أن الشركات اللعينة تقوم بدور ذلك الحمار الشيطاني الذي تتحدث عنه الاسطورة إلا اليوم. ولو كان يعلم لقصد الوالي من زمان وطلب منه أن يعيره شركة من الشركات تستقطب له الشباب وتغريهم بالبقاء في الواحة بين ذويهم حتى إذا فرغت من مهمتها وطاب لهؤلاء المغامرين المقام أعادها له شاكراً!.

تضاحك الحاضرون ولكن القاضي الزبرجداني لم تشبع النكتة فضوله فسأل غوما بإلحاح طفولي عن الحمار الشيطاني الذي ورد ذكره في الاسطورة فقال غوما متأففاً: «في آخر الزمان سيأتي الشيطان راكباً حماراً كي يجمع أتباعه ويأخذهم إلى الجحيم. فيلقي لهم بكل ما لذّ من الطعام وهو في طريقه الى هناك فيتدافع الناس الأغبياء وراءه بدافع الجشع ويستمر يغريهم بالمقتنيات الزاهية والأشياء الملونة والأطعمة الحلوة حتى يبلغ الهدف فيسقط الاتباع في بئر بلا قرار!». ضحك الحاضرون مرة أخرى ولكن القاضي أخرج قلماً وورقة ودون بعض الملاحظات دون أن ينسى التعبير عن امتنانه للشيخ غوما على هذه الهدية الحكيمة لأنه - كما قال - أصبح يملأ أوقات فراغه في السنوات الأخيرة بتجميع الأمثال والحكم القديمة ولا شك أن هذه الاسطورة تحمل رمزاً عميقاً يصلح للتدليل على ما يجري اليوم في الحياة العصرية التي يشير فيها كل شيء إلى أن الناس ذاهبون بسرعة جنونية وراء الحمار الذي يسوقهم الى الجحيم!.

ثم عرّجوا على النصراني كونسا وتناولوا بالتفصيل الخطر الكامن في نفيه لوجود الجن الذين ورد ذكرهم في القرآن فرأى الفقهاء أن واجبهم الديني يقضي تنبيه الرقريقي بعدم التدخل في شؤونهم الدينية وأقترحوا أن يقوم القاضي بالتفاوض معه في هذا الشأن. أوصوه أن يبلغه بالحرف: «لكم دينكم ولي ديني» وقالوا له أن عليه أن يلتزم بهذا القانون إذا أراد أن ينتهي عمله في الواحة على خير. وبالفعل تحمل الزبرجداني هذه المسؤولية وابلغ كونسا بما أجمع الجماعة عليه واجتهد في الوصية وأضاف فهدد النصراني بسبابته محذراً التشكيك في وجود

الجن طالما ورد ذلك في القرآن!.

ولم يكف القاضي عن وعيده حتى انتزع وعداً قاطعاً من كونسا الشقي في ألاّ يتدخل لا هو ولا أي أحد آخر من رفاقه في شؤونهم الدينية وأن يحافظ على تقاليد حسن الجوار مع مستعمرة الجن. ولم ينس القاضي أيضاً أن ينبه الرقريقي إلى أن اللعبة المفضلة للقوم السفليين هي التقاتل بالخناجر التي رآها عابرو السبيل تلمع تحت الضوء في الليالي المقمرة!.

وإمعاناً في الإرهاب عاد القاضي قبل انصرافه يشهر سبابته في وجه النصراني المبهوت ويهدده قائلاً ان التطاول على القرآن في عرف الواحة تهمته الزندقة وعقوبته فصل الرأس عن الرقبة!.

في اليوم التالي رفع كونسا مظلمته الى الشيخ غوما وقال له أنه لا يعرف السبب الذي دعا القاضي الوقور أن يشن هجوماً ويمارس القمع عليه فطمأنه الشيخ وحدثه طويلاً عن طباع أهل الواحة التي تبدو خشنة لأول وهلة في حين تخبىء وراء هذا القناع قلوباً أرق من قلوب العصافير!.

أثلج كلام الشيخ صدره فعاد الرقريقي إلى عمله ومرحه. ولم ينس أن يمر في طريقه على الغابة ويعقد صداقة مع الفلاحين ويقضي معهم السهرات يحتسي اللاقبي ويرفع عقيرته بالأغاني النصرانية الحزينة، وقد شوهد أكثر من مرة وهو يعود إلى معسكره على ظهر حمار مخموراً يجلس وراء فلاّح ثمل أيضاً ويتلعثم محاولاً أن يصطاد اللحن الذي يناسب المزاج.

ويجب الاعتراف أن ملاحظة القاضي لم تغب عن باله منذ ذلك اليوم. فإذا قال كلاماً لم يرق لمحدثه لسبب من الأسباب سارع كونسا يتساءل: «هل هذا يخالف الكرآن؟». حتى إذا أجابه محدثه بالنفي رفع كلتا يديه إلى السماء على طريقة المسلمين وردد في خشوع مقلداً الأئمة: «الهمد لله!». وعندما قيل له أنه يبالغ في الحرص على عدم مخالفة القرآن ضحك وأجاب أنه لا يفعل ذلك من باب التقوى وإنما يخشى أن يثير غضب القاضي الزبرجداني. ويتردد في الواحة أنه أدلى بتصريح حكيم في هذا الخصوص عندما قال ما مضمونه أن الإنسان في زماننا لا يخاف الله بقدر ما يخاف الخلق. وبرر هذا الرأي الجريء بلغة مبسطة فأكد أن آلهة كل الأديان أرحم على الإنسان من أصغر رجل دين. وكي لا يتهمه

الحاضرون بالتحامل على فقهاء الشريعة الإسلامية شن هجوماً عنيفاً على قساوسة كل كنائس الدنيا ووصفهم بالمنافقين الأنذال دون أن يعرف الأهالي سبب هذه القساوة ضد رجال دينه.

بعد أسابيع تسكعت شائعة في الواحة تقول ان هذا الرقريقي المغامر قد عرف الطريق إلى أبعد من الغابة؛ إلى بيت زهرة في الحي القديم!.

لم يصدق عقلاء الواحة في البداية. ولكن الشيخ الجاروف ما لبث أن نصب له كميناً فضبطه متلبساً في بيتها بلا لباس!

هنا أدرك كونسا - بعد فوات الأوان - أنه كان يلعب بالنار فأضيفت سابقة أخطر من الطعن في وجود الجن والتشكيك في القرآن إلى صحيفة حياته في الواحة، وهو الذي لم يكن ليتصوّر ما يعنيه معاشرة نصراني لامرأة مسلمة حتى لو كانت هذه المرأة من بنات الشارع السيئات السمعة أمثال زهرة!.

استغل عبد الجليل الجاروف هذا الإستهتار من جانب الرومي وقرر أن يوجه لمشروع الشيخ غوما ضربة موجعة فأقام الدنيا ونشر البلبلة بين الأهالي وشن حرباً كلامية تصف الرقريقي بأحط الأوصاف الأخلاقية وتتهمه بأنه لم يأت إلى الواحة أصلاً للبحث عن منابع الماء وإنما للبحث عن شيء آخر تخبئه النساء السيئات السمعة!.

وبلغت به الوقاحة والحقد حداً جعله يعقد اجتماعاً في الجامع حضره الأعيان والوجهاء والفقهاء والقاضي لمناقشة مصير هذا النصراني الوقح الذي تجاسر اليوم وغزا بيت زهرة، والله وحده يعلم نواياه الخفية فربما سوّلت له نفسه أن يتسلل في الغد إلى بيوت الشرفاء. وبالطبع تعالت هتافات الاستنكار تحت تأثير التحريض خاصة وأن الأمر يمس الشرف ويهدد الأخلاق وقواعد الدين. طالب المجتمعون باتخاذ الاجراءات الفورية لردع هذا الداعر وإنزال العقوبة به. وبلغ الحماس بالبعض أن طالب بتمزيق جسده بمائة جلدة حسب الشريعة أو رجمه بالحجارة حتى الموت. شعر الجاروف أن الزمام أفلت من يديه فحاول أن يخفف من قسوة العقوبة ويكتفي بنفي الجاني خارج حدود الواحة فيضمن إيقاف الحفر والإطاحة بمشروع النبع أو عرقلته وهو أضعف الإيمان! ولكن الجمع الهائج أصرّ على إذاقة الكافر طعم القصاص وإنزال العقوبة القرآنية بالمجرم في ساحة السوق طالما ضبطه

الجاروف بنفسه متلبسا بجريمته البشعة فمال نحو القاضي وطلب منه هامسا أن يهدىء من روع الغاضبين واستنجد به كي يتدخل للتلطيف من التوتر. قال القاضي وهو يسكت أحد الفقهاء بحركة من يده ويحرّك بمروحته المزينة بريش النعام الكثيف:

- مهلاً يا جماعة! لا يجوز للعقلاء أن يطلقوا العنان لعواطفهم كما يفعل الدهماء. إذا اجتمع الأعيان والعقلاء وأهل المعرفة والعلم انتظر منهم بقية القوم أن يخرجوا بنتائج تليق ببياض شيبهم وتناسب عقلهم وحكمتهم.

صمت وطاف على الحاضرين بنظرة عامة كي يرى تأثير خطابه ثم أضاف وهو يواصل تحريك المروحة:

- يجب أن نحتكم إلى الحكمة ونلتزم ضبط النفس. أنا لا أريد أن أخالف تعاليم ديننا الحنيف. حاشا الله! ولكن الموافقة على تنفيذ عقوبة بهذه القسوة لن تمر دون أن ينقلب السحر على الساحر كما يقولون فتنالنا عقوبة الحكومة!

سرت همهمة بين المجتمعين وواصل القاضي إبداء رأيه محاولاً أن يكبح جماح الغاضبين ويصب على الجمر قلّة من الماء البارد:

- نسيتم أن في الدنيا حكومة لها رأي قد يخالف رأينا وقانون يخالف قانوننا وحكم يخالف حكمنا. واللجوء إلى الرجم قد يودي بحياة النصراني فأي مبرر نقدمه للحكومة عندها؟ وأي مبرر تقدمه حكومتنا إلى حكومته؟ هل فكر أحدكم في أمر كهذا قبل أن تهتفوا بأقسى العقوبات وتطالبوا بأقصى قصاص؟

عادت الأصوات ترتفع بالهمهمة وبدت علامات الارتياح على ملامح الجاروف فردد عبارات التأييد لموقف القاضي ودفعه الحماس لأن يحشر أنفه مرة أخرى ويصرّح:

أنا أقترح أن نخفف من العقوبة. إبعاده من الواحة حل وسط يرضي الأهالي ولا يغضب الحكومة. الإبعاد حل معقول!.

هتف أكثر من صوت: «الابعاد. الابعاد. أبعدوا الفاجر! اطردوا الكافر!». ولكن القاضي أسكتهم مرة أخرى بحركة من يده اليسرى وغمر وجهه بموجة من الهواء بالمروحة وقال بوقار متعمداً أن يتجاهل اقتراح الجاروف:

ـ هناك رأي وحيد يؤيده الشرع والدين ويدعمه العقل والحكمة وهو أن يدخل الرقريقي الإسلام ويعقد على المرأة على سنة الله ورسوله!

هلّل الحاضرون وكبروا وهنأوا القاضي على حذقه وحصافة رأيه وانطلقت من أفواههم سيل من عبارات الاستحسان والاعجاب فاكتأب الجاروف وواصل الزبرجداني:

ـ لا يجوز للرومي أن يعاشر مسلمة في الشرع الإسلامي إلاّ إذا أشهر إسلامه! وإذا استطعنا أن نقنع هذا الكونسا في الدخول إلى رحاب ديننا الحنيف فإننا لا ننتهي من المشكلة فقط ولكننا نربح الأجر أيضاً ونتخلص من زهرة التي تسيء بسمعتها إلى الواحة. وهكذا نصيب عدة عصافير بحجر واحد!

تعالت الصيحات وسمع الزبرجداني عبارات استحسان مثل: «الله ينصر دينك يا سي القاضي!» أو «لقد نوّرتنا الله ينور طريقك!» أو: «خلّصتنا من الكافر ومن زهرة. الله يخلصك من كل شر بجاه النبي محمد صلى الله عليه وسلم».

هنا تململ الجاروف وأعلن إعتراضه في صورة شك «بريء»:

ـ ولكن نسيتم أن هذا الرومي يمكن أن يتمرد ويرفض الدخول في الإسلام. قولوا لي ماذا سنفعل إذا تجرأ ورفض اقتراحنا؟.

سارع الزبرجداني ينقذ الموقف فقال ببرود:

ـ امنحوني فرصة لمفاوضته. سأحاول إقناعه!

ارتفعت الحناجر بالتأييد وسكت الجاروف على مضض!

(٤)

كان القاضي على يقين أن قرار التخلص من زهرة وترتيب تعليقها في ذمة النصراني لن يروق لفريق كبير من وجهاء الواحة وحتى جانب من الفقهاء الذين يدعون الفضيلة في حين يهرعون في آخر الليل إلى بيت زهرة نشداناً للسلوى وترويحاً عن النفس التي أنهكها جفاف الحياة.

ولهذا السبب قرر الزبرجداني في سبيل إقناع هذا الرومي الشيطان أن يتسلح بالصبر ويحضر للمواجهة فقضى الليل يذاكر الكتب الصفراء تحت ضوء فنار الكيروسين الخافت ويبحث في ثناياها عن منطق النصارى في النقاش ورأي المسيحية في قضايا الزواج والطلاق والزنى ومعاقرة اللاقبي! ثم جاء الى معسكر الشركة في الصباح وطلب مقابلة كونسا على إنفراد.

لم يتوقع كونسا خيراً بمجرد أن رأى صلعة القاضي تلمع تحت شمس الضُحى فأجلس ضيفه على الكرسي وتعمد أن يقعي هو على الأرض محاولاً أن يخفي امتعاضه وانزعاجه من المواجهة بتثبيت نظارته الذهبية على أنفه الأحمر. والواقع أن احمرار الأنف يبدو خفيفاً إلى جانب احمراره وتوتره فعرف الزبرجداني أن خمرة البارحة ما زالت تلعب برأس الرومي.

استعمل القاضي كل خبرته في الحياة وفي القضاء كي يقنع كونسا بالدخول في الإسلام والزواج من زهرة واستخدم مطالعاته ومعلوماته عن سلوك النصارى وأخلاقهم وعاداتهم للضغط على الرجل وإجباره على الرضوخ. وعندما رأى التردد في عينيه سارع يلقي بآخر سهم: «هذا إذا أردت النجاة. لا أخفي عليك أن حياتك في خطر!».

صمت طويلاً قبل أن يعلن عن احتجاجه قائلاً انه متزوج وله أولاد، فحاصره الزبرجداني ووجد له الحل فوراً:

ـ ولكن لا تنس أن ديننا يبيح تعدد الزوجات! من حقك أن تتخذ أربع إذا شئت!

فكر كونسا في العرض مطأطىء الرأس ثم طلب مهلة للتفكير في الأمر فأدرك القاضي أن مساعيه قد كللت بالنجاح.

وبدل أن يطلب كونسا المشورة من رفاقه الروم ذهب الى الشيخ غوما واشتكى له إرهاب القاضي وسكب بين يديه دموعاً حارة طالباً أن يساعده في إيجاد مخرج من هذه الورطة، ولكن غوما ـ الذي تجنب دائماً الدخول في مثل هذه المنازعات الشخصية خاصة عندما يتعلق الأمر بالأخلاق والزواج والطلاق ـ رفع رأسه وتعلق بالأفق مزموم الشفتين جامد الملامح. صمت طويلاً فقرر الرقريقي أن يخوض غمار المغامرة.

ذهب إلى القاضي في بيته وزف له البشرى ضاحكاً فضحك الزبرجداني أيضاً وسقاه كأسين من الشاي الأخضر وأرسل في طلب مختار الساطور امام الجامع كي يشرف على مراسم إشهار الإسلام والنطق بالشهادتين على أن يقوم هو بإعداد الترتيبات اللاحقة. ولما كان الفضول صفة تميز النصارى عن بقية الخلق فقد تساءل الرقريقي عن نوع هذه الترتيبات ففوجىء بالقاضي يقول:

- الطهارة! لا بد من الختان. ديننا يمنع الدخول على المرأة دون أن..

إحمر وجهه من فرط الحياء وتصببت حبات من العرق على جبينه وهو يأتي بحركة من يده جعلت حتى الرومي يفهم ما يريد أن يقول.

إحمرّ وجه كونسا أيضاً ولكن بسبب الخوف. فسارع القاضي وهدّأ من روعه وأخبره أن ذلك يدخل ضمن الطقوس التي لا تتطلب متاعب كثيرة أو ترتيبات خاصة.

استمرّ كونسا ينكس رأسه وملامح وجهه تفضح توتراً واضحاً فلم يعرف القاضي عما إذا كان التوتر هو الخوف من المصير الذي ينتظره بالختان أم بسبب الخجل الناتج عن العملية نفسها. وقال في نفسه: «لا يستطيع المسلم أن يتنبأ بما يمكن أن يفكر فيه هؤلاء النصارى الدهاة!». فحدثته نفسه أنه ربما ارتكب خطأ في المناورة. إذ ما كان يجب أن يتسرع ويرهب الرومي بالطهارة قبل أن يضمن نطقه بالشهادتين فيقطع عليه خط الرجعة. هذا الصوت الداخلي هو الذي جعل القاضي يصر على إتمام مراسم الإشهار في الحال برغم تردد كونسا الواضح فبعث برسول آخر إلى الإمام وطلب منه أن يسرع بالحضور ودخل الى حجرة داخلية يفتح بابها على البهو الفسيح - حيث كانا يجلسان - وعاد بطبق من السعف متوج بالكعك وخبز التنور وحفنة من حبّات اللوز وضعها أمام الرقريقي وعاد على عقبيه مرة أخرى وجاء بطبق صففت عليه أدوات الشاي مقرراً أن يلهّي «ضحيته» إلى أن يأتي مختار الساطور ويضمن وقوعها بين فكي الفخ!

جاء الإمام وتربع قدّام الزبرجداني وقال وهو يفرك يديه كأنه ينوي أن ينحر شاة لا أن يستقبل مؤمناً في رحاب الإسلام:

- إعلم يا كونسا أنه ليس ثمة ما هو أسهل من الدخول في الاسلام.

أخرج مصحفاً منزوع الغلاف متآكل الأطراف وأضاف بوعيد وهو يرمق

الرقريقي من طرف خفي:

ـ .. ولكن الخروج منه هو الصعب. أتدري ما هي عقوبة الكفر عندنا؟

رفع رأسه ومرر إبهامه على رقبته مشيراً إلى أن العقوبة تعني فصل الرأس عن الجسد فانكمش كونسا على نفسه وتمتم ممتقع الوجه:

ـ يا حفيظ!

سارع القاضي يلطف من إرهاب الإمام وهو يقدّم لهما الشاي في كأسين مجردين من الرغوة:

ـ ومع ذلك فإن الإسلام هو دين التسامح والمحبة. لا تهتم كثيراً لما يقوله المتطرفون والمتعصبون أمثال الإمام مختار. إن لهم طبيعة تميل إلى إرهاب الراغبين في الدخول إلى ديننا الحنيف.

إغتصب الإمام الابتسامة قسراً معتبراً تهجم القاضي على شخصه من قبيل المزاح. إفترش منديلاً على الحصير. وضع فوقه المصحف بعناية وهو يتمتم ببعض الآيات لإضفاء المهابة على الموقف وإعطاء الفخامة لطقوس الدخول في دين يحرض على البساطة ويدعو الى السماح والتسامح.

قال:

ـ الآن ردد ورائي: بسم الله الرحمن الرحيم.

إستنجد النصراني بالقاضي ونظر إليه في ضراعة فشجعه الزبرجداني بإيماءة من رأسه.

تمتم كونسا:

ـ بسم الله الرهمن الرهيم..

ـ أشهد أن لا إله إلا الله.

ـ أشهد أن لا إله إلا الله.

ـ .. وأن محمداً رسول الله.

ـ .. وأن مهمداً رسول الله.

ـ إذهب فأنت مسلم منذ هذه الساعة.

تساءل الرقريقي وهو ينظر الى القاضي:

ـ خلاص؟

هنأه الزبرجداني بابتسامة ثم قام وعانقه قائلاً:

ـ خلاص. هذا كل شيء. أنت الآن منّا. لا فرق بيننا وبينك.

هتف كونسا وهو يرفع يديه نحو السماء:

ـ الهمد لله!

ولكن الإمام قصر من عمر فرحته بسرعة:

ـ ليس هذا كل شيء. هناك مراسم الختان ليلة الجمعة إن شاء الله. بعد غد.

رأى الهلع في مقلتي كونسا فتدارك الموقف:

ـ سأحاول ألا يكون ذلك أليماً على كل حال. سوف يحضر الممرض إذا كنت لا تثق بي!

عاد القاضي إلى مجلسه وقال مدحرجاً الجمر في الكانون بمسعر زيّن طرفه العلوي عند المقبض بنقوش بديعة:

ـ سوف تحتاج الى حفظ بعض الآيات لتستعين بها في صلواتك: سورة الفاتحة وسورة أخرى قصيرة فلنقل سورة «التوحيد» إذا شئت.

هز كونسا رأسه بالموافقة ونهض الإمام وهو يعيد المصحف إلى جيبه قال:

ـ حان موعد آذان العصر. يجب أن أؤذن للعصر. السلام عليكم!

دهش القاضي وهو يسمع الرقريقي يرد التحية قائلاً:

ـ وآليكم السلام.

فقال في نفسه أنه تأقلم في الدين الجديد وتنبأ له بمستقبل وأيقن أنه سينال أجراً عظيماً في الآخرة مكافأة له على نجاحه في استدراج «الكافر» إلى الصراط المستقيم.

كان على يقين أن النصراني سيكون مسلماً صالحاً!

(٥)

ليلة الجمعة، مع العشية، بدأت طقوس تطهير كونسا من النجاسة!

الإمام مختار قال ان الختان شرط أساسي لاعتناق الاسلام فلم يكن أمام الرقريقي إلا الإستسلام!

حاصره مختار بين جدران الجامع بحضور الزبرجداني والممرض مسعود وهو يغرقه في زوبعة كثيفة من البخور الكريه الرائحة في حين تجمع لفيف الفقهاء والفضوليين في البهو الخارجي يقرأون القرآن أو يسترقون النظر إلى ما يجري في الداخل، أو ينهمكون في تبادل المعلومات عن آخر الفضائح الأخلاقية أو يسردون أخبار الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق. وبرغم قداسة المكان ومهابة الموقف إلا أن أحد الفقهاء المعروفين بجرأتهم في تسمية الأشياء بأسمائها مال على أحد المعلمين القادمين من الشمال خصيصاً لشحن رؤوس الجيل الجديد بالعلوم العصرية وباح له بمخاوفه من أن كل ما يفعله هذا الكافر الداهية مجرد تمثيلية بارعة للإستيلاء على جوهرة الواحة، زهرة! وأضاف الفقيه الجسور هامساً في أذن المدرس الشره قائلاً ان ارتباطها بعصمة الرقريقي سوف يجعل الواحة تعاني من الفراغ وهو شخصياً لا يتصوّر الدنيا بدون زهرة!

المعلم النهم أيّده بهزات متتابعة من رأسه.

بعد قليل أقبلت النسوة أيضاً يجرجرن أطفالهن ويلتحفن بلباس المناسبات احتفاء بالحدث. تحلقن في دائرة واسعة خارج السور وسرعان ما تناطحن برؤوسهن وانطلقت ألسنتهن تردد آخر الشائعات في حين مزق الأطفال الهدوء بالبكاء وهم يتشبثون بتلابيب أمهاتهم المشغولات في القيل والقال.

بين جدران الجامع أخرج الإمام مختار الساطور عدة العمل من جراب صوفي ملون تعوّد ألا يفارق منكبه الأيمن قائماً بدور المحفظة الجلدية، ولما سأله القاضي في احدى الجلسات الرائعة عن سبب تشبثه بجراب الصوف قال ان ثمة عداوة مميتة بينه وبين جلود الحيوانات من زمان. وأضاف بيقين وهو يهرش رأسه: «الأمر لا يخلو من مكيدة سحر دسّها لي الأعداء في جلود الحيوانات» وقال أيضاً أن البقع الحمراء تغزو جسمه ويصيبه الدوار بمجرد أن يضع في جيبه محفظة جلدية. وحدث مرة أن بلغت به حالة الغثيان حداً جعله يترنح فوق المئذنة ويكاد يسقط إلى الأرض أثناء تأدية آذان الفجر. وعندما بحث عن السبب إكتشف أن زوجته قد غافلته وطوقت معصمه بخيط من الجلد - بدل خيط القماش - كي لا ينسى أن يمر على السوق في طريق عودته الى البيت ويشتري لها من تجار القوافل زجاجة من تلك العطور الكريهة الرائحة التي يتاجر بها هؤلاء الحذّاق ويستوردونها من قبائل الهوسا في كانو.

هذا بالنسبة للجراب الصوفي. أمّا المقصّ الأسود الضخم فقد أثار الرعب في نفس كونسا المسكين، ففتح فمه واستنجد بالقاضي دون أن يصدّق على ما يبدو أن بالإمكان استعمال مقص وحشي كهذا في الختان.

والواقع أن الرقريقي على حق. فقد تعددت الأغراض التي تعوّد مختار أن يستعمل فيها هذا المقص المخيف بداية بجز الأغنام ونهاية بتشذيب اللّحى وتقليم الأظافر وحلق الشعر على رؤوس الأطفال.

أمسك الإمام بالمقص وأمر كونسا أن ينزع سرواله ولكن الرقريقي هزّ رأسه بالرفض كالطفل. تبادل مختار النظر مع القاضي ثم انتقل تبادل النظرات مع الممرض مسعود فقال مختار مطمئناً:

- هذا لن يؤلم. أنت لست طفلاً ولست الوحيد الذي أقوم بتطهيره فدعنا ننتهي من عملنا بالله!

ولكن كونسا بدأ يرتعد ويغرق في العرق. إلتفت نحو الباب فعرف الإمام بخبرته أن الداهية ينوي الهرب فهجم عليه وجثم على صدره بحركة مفاجئة خبيرة. صرخ كونسا حتى سمعه المجتمعون في الخارج وطار صوته حتى وصل إلى النساء المتجمهرات خارج السور: «أنا مش مسلم. أنا مش مسلم». فزمجر مختار

الساطور وهو يجرده من سرواله:

ـ قلت لك من البداية أن الدخول إليه ليس كالخروج منه. هل تعتقد أننا نضيع وقتنا في المزاح؟

مضى وقت قصير بعد ذلك قبل أن يرفع الرقريقي صوته بالسباب واللعنات بكل اللغات التي يعرفها: العربية والرقريقية ولغات أخرى مجهولة في الواحة!

قابلت النساء لعناته بعاصفة من زغاريد التسامح إحتفالاً بخروج الكافر من دينه الوثني، وابتهاجاً بانتهاء مراسم اعتناق كونسا ـ مدير شركة حفر الآبار بواحات فزان القادم من بلاد الرقريق ـ للإسلام.

خرج كونسا من الجامع محطماً، ممتقع الوجه، غائر العينين، ملوثاً بالنزيف يساعده القاضي ويستند في مشيته المضحكة على كتف الممرض مسعود حتى ألقوا به في سيارة لاندروفر كانت تنتظره خارج السور.

وبالطبع لم ينس مختار أن ينال أجره الدنيوي فدس يده في جيب كونسا وخطف كل ما وقعت عليه هناك: خمسة جنيهات كاملة.

أمّا أجره الديني فعند الله يوم القيامة!

قضى كونسا عدة أسابيع طريح الفراش، يزوره الممرض يومياً ليضمد الجرح ويداوي الجريح بالحقن والعقاقير المستوردة من بلاد ما وراء البحار. أما الرقريقي نفسه فلم يتوقف عن شتم الفقهاء السفاحين وعلى رأسهم الإمام مختار. وروي عن مترجم الشركة (وهو شاب نحيف تعود أصوله إلى مدن الشمال) قوله ان كونسا تطاول وسب الدين بحقد يؤهله لأن يعود إلى دنيا الكافرين ويحتل مكاناً مرموقاً في جهنم بين معشر النصارى والمتنصّرين. أما كبير الخبراء ماريوس فلم يخف امتعاضه من عملية الختان وقيل في المعسكر أنه تشاجر مع رئيسه ونابزه بألقاب التحقير وقال للمترجم غاضباً وهو خارج من حجرة كونسا: «كونستانتيس باع روحه لشيطان المسلمين في سبيل امرأة رخيصة. أوه يا إلهي ما أبخس الثمن!». ثم تدفق لسانه بسيل من الرطانة التي فهم جميع الحاضرين أنها لا يمكن أن تعني غير السباب!

إستمر كونسا راقداً على ظهره، صارخاً بالشتائم التي تمس الدين الجديد.

وقد ولع بهذه العادة عندما يتحامل على نفسه ويمشي في العراء لقضاء حاجته فيسمعه كل المعسكر وهو يئن ويتوجع قبل أن يرفع صوته باللعنات.

ما لبثت هذه الروح العدوانية أن وصلت الشيخ غوما فبعث للرقريقي بوصية قاسية ينصحه فيها أن يبلع لسانه ويكف عن استفزاز مشاعر المسلمين إذا أراد ألاّ يبتروا عضواً آخر في جسمه ويقطعوا لسانه من منبته. على حد تعبير الشيخ - فخفف كونسا من الشتائم واكتفى بالتأوهات كلّما اضطر أن يزحف الى العراء المجاور لمملكة الجن كي يقضي حاجته!

تعافى فزاره القاضي.

شرب كوباً من الشاي الخفيف في كوخ كونسا الخشبي ثم مد سبابته في وجه الرقريقي وقال محذراً: «قلت لك أن تكف عن التطاول على دينك الجديد لأن ذلك يعني الزندقة. لا يفوتني أن أذكرك مرة أخرى بأن عقوبة الزندقة عندنا هي حزّ الرأس. أنصحك أن تغلق فمك جيداً إذا أردت السلامة!».

فنهض كونسا بقامته القصيرة وجسمه المكتنز المضحك ووضع كلتا يديه على فمه قاطعاً بهذه الإشارة على نفسه عهداً ألا يمسّ الدين بكلمة في المستقبل. فلانت أسارير القاضي وأعلن باسماً أن الباب مفتوح أمامه الآن لقراءة الفاتحة والدخول على زهرة وغير زهرة على سنة الله ورسوله!

(٦)

عند قيام الإمام بتلقين الرقريقي لحفظ سورة «التوحيد» بعد الفاتحة احتد النقاش وخالفه عدد من الفقهاء الرأي وقالوا ان آية الكرسي للرومي خاصة وأنه يتخذ من الجان جيراناً، فاعترض مختار الساطور وأصرّ على أهمية سورة «التوحيد» بالنسبة لأمثاله من الداخلين في الإسلام الحديثي العهد باعتناقهم لدين الحق. وبرر ذلك بسببين اثنين: أولهما: يرجع إلى مضمون السورة الذي يدحض تصورات النصارى وخرافات المجوس حول تعدد الالهة. ويقدم بما لا يدع مجالاً لشك الدليل على وحدانية الله سبحانه. وثانيهما: وقائي. فربما خطر ببال هذا الداهية أن يتراجع في إيمانه بمجرد أن يقضي وطره من زهرة ويعود إلى دينه القديم

مسلحاً بأخطر آية في القرآن الكريم تعتبر حكراً على التقاة والسحرة المتخصصين في مصارعة الكفرة من الجنّ.

ولهذا رأى مختار - من باب الإحتياط - أن يحيط آية الكرسي بالكتمان ريثما يتحقق من نوايا ابن الروم! وفي سبيل اقناع الفقهاء دعم الإمام رأيه ببعض الأمثلة المتوارثة من الأولين تحكي قصصاً مثيرة عن نصارى جاؤوا الى الواحة بحثاً عن الذهب والجثث القديمة وتظاهروا باعتناق الإسلام ولبسوا الجبة ووضعوا على رؤوسهم العمامات والعصابات تشبهاً بالمسلمين حتى إذا عثروا على ضالتهم في الأقبية السفلية تحت الجبل وجد الناس لباس المسلمين المقدس ملوثاً بالروث والبراز وبين طياته ترقد أوراق كتبت فيها عبارات فظيعة تسخر من دنيانا ودينننا في حين يكون هؤلاء السفلة قد ابتعدوا عن الواحة بمسافة تضمن لهم النجاة من القصاص!

أمام هذه الحجج القاسية لم يملك الفقهاء إلاّ أن يقنعوا برأي الساطور حتى لا يتحملوا مسؤولية أفعال كونستانتيس إذا أصاب الإمام في شكوكه وخطر للزنديق أن يرتد لسبب من الأسباب، فضمن مختار النصر وأخفى آية الكرسي بعيداً في قلبه وفتح المصحف على سورة التوحيد وقرأ وهو يترنح يميناً ويساراً داعياً الرقريقي لأن يردد خلفه: «بسم الله الرحمن الرحيم. قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد.».

فيردد كونسا خلفه بكسل وبلهجة لا تخلو من الملل والضيق ناطقاً الكلمات باعوجاج، محولاً حرف الـ«ق» إلى «ك» فيقول: «كول» بدل «قل». فيعيد الإمام ويحاول أن يقوّم لسانه ويصلح إعوجاج لغته قائلاً: «لا تقل كول وإنما قل!» فيردد المسكين خلفه محمر الوجه: «لا تاكل كول وإنما كول». فيغضب الساطور ويهدده بسبابته ويحذره من تحريف القرآن لأن عملاً كهذا سيعرضه لعقوبة الجلد بسوط لا يقل قساوة عن سوط الشيخ غوما. ولكن كونسا يعجز عن جعل لسانه يستقيم فيعيد الكلمة بلفظ أكثر ركاكة فيضرب الإمام كفاً بكف ويقول مسلماً أمره لله: «حقاً ما يقال: لا سبيل إلى تقويم ذيل الكلب. وضعوه في قصبة أربعين شهراً وعندما نزعوه على أمل أن تكون المدة كافية لجعله يستقيم وجدوه قد عاد إلى اعوجاجه!». ثم ينهض ويخفي إنفعاله بالتكبير للصلاة.

قبلها استطاع الساطور أن يلقن الرقريقي سورة الفاتحة بجهد جهيد. أمّا

بالنسبة للصلاة فقد دربه على السجود والخشوع والركوع قبل أن يحفظ حتى الفاتحة نفسها، ولما وبخه زملاؤه الفقهاء على هذه البدعة أجاب أن كل عمل يفيد في تعويد النصراني وترويضه على ممارسة شعائر الإسلام هو عمل محمود ومشروع ولا يتعارض مع الشريعة. وكم مرة شاهدوهما يقفان في خشوع (الإمام في المقدمة ويليه كونسا مبتعداً مسافة ثلاث خطوات) ميممان شطر القبلة، يستغرق مختار في قراءة القرآن بصوت مسموع مصالباً يديه على صدره في حين ينتهز الرقريقي اللعين الفرصة فيحشو أصبعه في أنفه أو يهرش رأسه أو عجيزته أو حتى يلتفت يميناً ويساراً برغم أن الإمام كثيراً ما نهاه عن ذلك ودعاه لأن يتخلى عن هذه العادة السيئة محاولاً - عبثاً - أن يضع في رأسه أنه لا يقف في محراب الكنيسة وأن هذه الحركات من شأنها أن تبطل الصلاة. ولكن ابن الروم لم يستطع - برغم كل جهوده المخلصة في هذا السبيل - أن يلتزم حرفياً بالتعاليم الإسلامية المشددة بشأن طقوس الصلاة مستغرباً كيف يمكنه أن يمنع نفسه من أن تأتي بحركة طبيعية كأن يهرش رأسه أو يمسح ذقنه أو يبصق خلفه.

هذا بشأن المران على تأدية فريضة الصلاة.

أما مراسم العرس ففاقت ببساطتها كل الطقوس الدينية السابقة. ولم يصدّق كونسا نفسه وهو يتربع على الكليم ويمسك بيد عروسه الشرعية ليلة الدخلة دون أن يضطره الفضوليين أن يتسلل الى بيتها تحت ستار الظلمة بالقفز من النوافذ!

عادت له الثقة بنفسه حتى تجرأ وقرر أن يبحث عن مكان مناسب يقضي فيه شهر العسل مع عروسه الجميلة متحدياً بذلك مشاعر الأهالي معلناً تمسكه الضمني بعادات النصارى وتمرده على تقاليد المسلمين. وبرغم الاستنكار الذي رآه في عيون السكان إلا أنه أجلس زهرة بجواره في اللاندروفر وداس على البنزين وتوجه الى الصحراء الواقعة غرب جبل الحساونة جنوب الحمادة الحمراء لقضاء شهر العسل والبحث عن الغزلان الطائشة!

هنا عض ثلاثة أرباع الرجال في الواحة بنان الندم وأيقنوا أن العصفور الرشيق قد أفلت من بين أيديهم إلى الأبد، ولم يعد باستطاعة المنافقين الملتحين الناهين عن الفحشاء والمنكر بالنهار المتسللين الى بيتها بالليل وهم يتأبطون قلل اللاقبي - لم يعد باستطاعتهم أن ينعموا في المستقبل بدفئها وحنانها بعد أن جاء هذا الجني لينسج خطته متستراً باعتناق الإسلام كي يختطفها من بين أيديهم الى الأبد،

فتحسروا كثيرا وشتموا الرقريقي وحقدوا عليه، حتى لم يعد صعبا على المراقب أن يرى التوتر والكآبة والضيق في عيونهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم ببعضهم فتملكتهم الوحدة والوحشة والفراغ.

ولما كان يوجد لكل شيء بديل فقد وجد البديل حتى لزهرة!

احتلت رحمة محلّها.

وهي امرأة استطاعت أن تمهّد لاحتلال هذه المكانة، علاوة على ما تملكه من مؤهلات الجمال وسوء السمعة أشبعتها الألسن في الواحة بالتناول والتعليق منذ أن عادت من واحات الشمال مطلقة من زوجها الأول لأسباب قيل انها أخلاقية!

وقد تنازعت هذه المرأة الحاذقة آيس مع زهرة في وقت من الأوقات واشتد هذا النزاع بين المرأتين بعد خلاص حفيد الشيخ غوما من باتا طمعاً في الاستيلاء على الفتى والزواج منه. وبلغ الصراع بينهما أن تشاجرتا بالأيدي والأظافر في معركة نشبت في الحي القديم حيث التقتا في حفل زفاف وتشاتمتا على مرأى ومسمع من جموع الرجال والنساء الذين نسوا العرس واكتظوا يتفرجون على المشهد المثير. تطوّع فضل الله درهوب وأخبر صديقه بكل التفاصيل في اليوم التالي وهو يتلوّى ضاحكاً فما كان من آيس إلا أن هجرهما كلاهما معاً فنجح في الامتحان وفاز بمباركة الشيخ غوما الذي بعث له مع الشيخ أهر بوصية تقول: «لا يضير الرجل الحقيقي أن يمر في رحلته بمعشر النساء ويكتوي بجحيم المرأة ولكن العبرة أن يختار الوقت المناسب كي يعبر هذا الجحيم إلى الجانب الآخر!».

ساعده الإفلات من زهرة والتخلّص من رحمة طريقه الجديد الذي لم يعد يمر على بيت زهرة في الزاوية تحت الجبل وينحرف منحدراً حتى يسلّمه بين يدي رحمة أسفل المنحدر في السهل المنبسط، ولكنه أصبح يخترق سلسلة البيوت المصطفة شرق الجبل ويعبر الغابة إلى المستوطنة أقصى الجنوب الشرقي، فحمد الله الذي أنقذه من رحمة وهي تمضغ اللبان وتعترض طريقه الى البيت قائلة: «أنا لا أخفي ثعباناً في خريج التمر يا آيس! لا تخف فإن الثعبان لن يلدغك في بيتي» فيحمر وجهه خجلاً ويستنجد بفضل الله فيكتفي الأخير بأن يتلوى إلى الأمام ويستلقي إلى الخلف ضاحكاً.

هجر الفاتنة زهرة أيضاً، فتنفس وقال في نفسه: «يكفي. هذا شرّ لا بد منه

ولكن يكفي. علّ العجوز المرحومة ترضى عني في قبرها وهي تراني أسلك الصراط المستقيم». فكسب رضى كلا العجوزين: جدّه غوما في الدنيا وعمته الزنجية في الآخرة.

ولكن آيس تذكر ـ وهو يتخذ هذا القرار ـ ذلك الموقف الحزين عندما مشت العجوز خلفه عند خروجه من البيت ولجوئه إلى باتا محاولة أن تثنيه عن عزمه حتى يئست فوقفت وسمع صوتها المتعب يخرق سكون الصباح وهي تردد وراءه: «اذهب يا آيس فليس أمامك إلا الضياع» فوقف ودسّ رأسه في حقيبة كتبه وبكى بمرارة. ثم لعن الشيطان الرجيم وذهب الى قبرها وقرأ على رأسها الفاتحة.

أما رحمة فبدأت تدرّب نفسها على استقبال الرجال وفتح باب المنافسة لنشاط زهرة بمجرد أن يئست من استدراجه الى بيتها. وما زالت تلك الفتنة التي نشبت بين أحد المدرسين الغرباء ورجل من أبناء الواحة مثار جدل في الواحة. حددت لكليهما موعداً لزيارتها في وقت واحد فالتقى الرجلان وفوجئا فتقاتلا بالأيدي في البداية. تطور الأمر فمزقا وجهي بعضهما بالأظافر والخناجر. ولم تخجل الفتاة الشريرة من أن تبرر مكيدتها ضد الرجلين الشقيين فقالت انها أرادت بهذا العمل أن تضع مواهبها الأنثوية على محك الاختبار. مكث الاستاذ عامر دلدول بعد هذه الحادثة المشينة أياماً في البيت المتلاصق للمدرسة المخصص لإيواء المعلمين القادمين من مدن الشمال، ورقد في الفراش بضعة أسابيع مضمد الوجه والأطراف يتردد عليه الممرض مسعود بين الحين والآخر.

ولكن الجراح ـ برغم خطورتها ـ لم تمنع هذا المغرور العنيد من أن يستدعي فضل الله ويعطيه ورقة زرقاء أخفاها بعناية داخل مظروف قديم وطلب منه أن يسلّمها لأخته.

لم يستغرب فضل الله أن تبلغ الشجاعة بالمدرس الجريح حداً يمنح فيه الأخ خطاب غرام لأخته بسبب السوابق التي مهّد بها عامر لكسب ودّه وضمان صمته. إذ لاحظ الصبي منذ شهور اهتمام دلدول به ومثابرته على مساعدته في حل عمليات الحساب وتقويم لغته في مادة الإنشاء، حتى أنه غض الطرف ليترك له المجال كي يغش في الاختبار وينقل الأجوبة من صفحات الكتب.

ذهب فضل الله الخبيث إلى الربوة المطلة على بيتهم وفتح المظروف وقرأ

اعتراف المدرس الجريح لرحمة بالغرام غافراً لها سوء التفاهم الذي حدث مؤكداً استعداده لخوض عمل بطولي أكبر إذا تطلب الأمر فغرق الولد اللعين في الضحك حتى ترقرقت عيناه بالدموع ثم نهض ونزل الربوة وسلّم الرسالة لرحمة.

• لم يهدأ اللغط حول المشاجرة الأولى حتى تورط عامر دلدول (بمجرد أن تماثل للشفاء) في مناحرة أخرى أشرس من سابقتها مع الفلاح المغامر المرح سليم الدنداني. فاقتيدا معاً إلى نقطة البوليس وأجري معهما تحقيق عاجل مراعاة لخطورة جراحهما فقدّم عامر بهذه المعركة الوحشية دليلاً بطولياً آخر يرضي كبرياؤه أمام محبوبته. حتى أن ابتسامة استخفاف رفت على شفتيه أثناء التحقيق أدهشت الضابط ورأى أنها لا تناسب الدماء التي تغمر وجهه وملابسه ويديه علاوة على أنها تشكل تحدياً لجلال القانون.

أمّا سليم الدنداني فقرر أن يحتكم الى عدالة الجن. فذهب الى الغابة، وضمد جراحه بنفسه، واحتسى ما وقع تحت يده من اللاقبي. ثمّ ركب حمارته وذهب الى مستعمرة العالم السفلي. رقد فوق الرماد أملاً في أن يشفق أصدقاؤه ويدعونه للمثول بين يدي ملكهم الجليل ليشكو له المعلم الذي أفسد الملاك رحمة واستولى على قلب الفتاة بعد أن أغراها بالمال. كان الفلاح يطمع في عطف القصر المكتظ بالجواري والحسان الذي سيمنحه القطع الذهبية التي ستساعده في الصمود بوجه المدرس الغريب واسترداد قلب رحمة فرفع يديه في الظلام، وهو يتوسد الرماد ويتأهب للنوم، وطلب من الجن بصوت عال أن يهبوا لنجدته. ولكن أصدقاءه خذلوه هذه المرة. فبدل أن يدعوه لزيارة القصر ويقيموا على شرفه الولائم. كما حدث في المرة الماضية ـ دسوا له في كمه أفعى. لدغته في الليل وهو نائم ولم يأت الصباح حتى وجده مستخدمو شركة حفر الآبار في المعسكر المجاور مستلقياً على ظهره، مسود الوجه ترف على شفتيه ابتسامة غامضة وقلة اللاقبي الفارغة منصوبة على رأسه كأنها حجر المقبرة. تحسسوا أطرافه الباردة وجسوا نبضه فوجدوا أن الفلاح جثة. ولم يعرفوا السبب إلا عندما وجدوا أثر الأفعى على الأرض بعد أن انسحبت من المكان بمجرد أن انتهت من المهمة التي أرسلت من أجلها!

قال الكثيرون في الواحة: «هذا جزاء الطماعين. انتزع من بين أيديهم حلقة ذهبية في المرة الماضية فطمع في المزيد. ما كل مرة تسلم الجرة!».

الشيخ غوما علّق على حوادث التناحر الليلية محاولاً أن يعطي الأمر بعداً

عـاماً: «إذا تنازع الرجـال في الليل فـاعلم أن وراء الشـجـار امـرأة. في النهـار يتشاجرون على الأراضي وتوزيع مياه عين الكرمة. أما في الليل فلا يوجد سبب غير المرأة!». أيده الحاضرون وهم يتبادلون النظرات.

في تلك الأثناء عاد أبو رحمة من عمله في الواحات الشمالية فاستقبلته الأقاويل المسموعة والأصوات الهامسة وأغرقته في الخجل. دار بين معارفه وأصدقائه وهو يتساءل كالدرويش: «هل صحيح ما يقال ان الملعونة شوهت سمعتي في غيابي ومرغت لحيتي في التراب؟» فلم يستطع أن يجعل هؤلاء ينطقون بالحقيقة. إستجوب فضل الله فزاده الولد حيرة بابتساماته البلهاء وإجاباته البليدة فتوجه الى الدار وربط ابنته بحبل مفتول من الليف إلى ضلفة الباب وتوكل على الله وهجم عليها.

بدأ عمله بعد صلاة المغرب ولم ينته العجوز إلاّ في آخر الليل عندما سقط على الأرض وهو يلهث من التعب بعد أن استعمل يديه ورجليه وحزامه الجلدي وكل ما وقعت عليه عيناه في الدار. قال بأنفاس متلاحقة: «المجرمة. الشريرة. دست على سمعتي ومرغت شرفي في الوحل يا بنت الكلب!» ولكن الفتاة العنيدة ظلت ترفع نحوه وجهاً مشوّهاً بالكدمات وترمقه بنظرة حقودة ظافرة دون أن ترد.

في الصباح أيقظ الوالد فضل الله مبكراً وقال له أنه سيتوكل ويغرب عن الواحة. قرر أن يهاجر وطلب منه أن يلحق به عند انتهاء المدرسة في العطلة الصيفية فأعلن الولد موافقته دون حماس.

في الليل سمعه ينتحب. وفي الصباح حزم أمتعته وسافر فنسي فضل الله الحوار الذي دار بينهما.

(٧)

رافق كونسا في رحلته الصحراوية مترجم الشركة مدهوب السردوك والسائق مغري ابن الصحراء وخبير البيداء الذي جلس بجوار المترجم في مقدمة اللاندروفر السابحة في الفراغ مثيرة خلفها ذيلاً طويلاً من الغبار. فيغمر السيارة الخلفية

ويحجب الرؤية عن كونسا فيغتاظ ويلعن السردوك بالرقريقي ويدوس على البنزين ويسابق اللاندروفر الأمامية ويتجاوزها ليغرقها بزوبعة الغبار فتصفق زهرة وتهلل فرحاً. ولكن السيارة الخلفية سرعان ما تنبهه بإشارات ضوئية متتالية إلى أنه ضل الطريق فيوقف سيارته ويلتفت إلى اللاندروفر التي يقودها السردوك ويصبّ على رأس مغري الشتائم بعربية ركيكة ثم يبصق على الأحجار السوداء المشتعلة ويدوس على اللاندروفر منحرفاً نحو اليمين مقتفياً أثر الجماعة.

يطيب لكونسا في الرحلة أن يدندن بأغنية رقريقية أو بترويض لحن مرزكاوي قديم فتبتسم زهرة وتساعده في تقديم النطق حتى تقفز مقلتاه من محجريهما ويهتف مشيراً إلى الفراغ في تحدٍ: «غزال! هذا غزال!» فتضحك عروسه وتصحح: «هذا ليس غزالاً! هذه عشبة في السراب!». ولكن كونسا لا يصدقها حتى يقترب من العشبة فتنحسر عنها المياه الفضية اللعوب ويبتعد البحر فتتقلص أرجل الغزالة الرشيقة وتنكمش رقبتها الهيفاء وتتكوم على نفسها وتتحول إلى شجيرة برية صغيرة تتضوّر لهفة للماء وتجاهد لاتقاء نار الشمس.

يرمق كونسا زوجته بنظرة خجولة تعبر عن اعتذاره وجهله بطبيعة الصحراء ولكنه لا يلبث بعد قطع مسافة قصيرة أن يهتف مرة أخرى: «غزال هذا أكيد غزال!» فتحدجه زهرة وتخيب أمله مبتسمة: «هذا ليس غزالاً. هذا حجر واقف!». تلتهم اللاندروفر الأرض وتأكل المسافة وتقترب من «الغزال» المزعوم فيكتشف كونسا أن تصوراته عن الصحراء فظيعة وبدائية والحجر الأملس الطويل يقف وحيداً رشيقاً في ذلك الخلاء الموحش ويقدم له الدليل على هزيمته للمرة الثانية في مباراته مع زهرة. برغم ذلك لم يستسلم كونسا في بحثه عن الغزلان الأسطورية.

استمرّوا يتسابقون في الفيافي الأبدية. يدوسون على البنزين. يتبادلون الجلوس خلف المقود. يتوقفون لإطفاء العطش ليعودوا إلى كراسي اللاندروفر لينطلقوا من جديد.

قضوا ليلتهم الأولى دون صيد فاضطرت العروس أن تقدّم لهم معلبات التن والسردين ورغيف التنور على العشاء. وفي الصباح استيقظ مغري والسردوك على هدير اللاندروفر مع مطلع الشمس ووجدا كونسا ينهمك في تدريب زهرة على قيادة السيارة فتندفع إلى الأمام في سرعة جنونية ثم تنحرف إلى اليمين بحدّة

مثيرة غباراً كثيفاً، ثم تتضاحك العروس وتدوس على البنزين من جديد فتنطلق اللاندروفر نحو الفراش حيث يرقد مغري والسردوك فيقفز أحدهما الى الشرق ويفر الآخر إلى الغرب وهما يهمهمان بشتائم لا تتناسب مع سحر الصباح الصحراوي.

ثم يفترشون الأرض ويتقرفصون على مائدة الفطور ويحتسون أكواب الشاي لتبدأ الرحلة من جديد، ولكن مغري لم يصب الغزالة الشاردة ببندقية الخرطوش إلا في اليوم الرابع.

بلغوا مرتفعات الحمادة الحمراء الجنوبية فظهرت الغزالة في الأحراش اليابسة في السهل ومرقت أمام السيارة وهي تخرق الفضاء بقفزات رشيقة ولكن ابن الصحراء أصابها ببندقية الخرطوش ببساطة أدهشت زميله السردوك وأذهلت الرقريقي فأغدق عليه بالثناء وهو يقف على رأسه ويراقبه وهو ينشغل بسلخ الشاة المعلقة من رجليها الرقيقتين في اللاندروفر. كونسا لم يصدق أذنيه وهو يستمع الى المفاجأة التي خبأها له الداهية. قال مغري وهو يأخذه من يده ليفرجه على المفاجأة:

ـ هل رأيت هذه الآثار؟ إنها قطيع كامل لجأ الى المرتفعات هرباً من بنادق الصيادين.

صمت وأضاف بلهجة ذات معنى:

ـ هرباً من بنادقنا!

هزّ كونسا رأسه علامة الموافقة واستمر مغري:

ـ إنها تنزل السهل وترتع في الوادي لتتغذى على العشب في أوقات معينة.

رمق الرقريقي بنظرة سريعة وختم كلامه:

ـ أنا أعرف هذه الأوقات. أقترح أن نقضي ليلتنا هنا.

وافقه كونسا صامتاً.

كان يفكر في كلام البدوي.

قبل الغروب عاد البدوي من جولة في المنحدرات المجاورة وجلب معه ترفاسة بيضاء ضخمة جفّ نصفها العلوي المعرض للشمس فانتهزت الطيور الفرصة وأكلت نصيبها من الترفاسة. ولما كان رفاقه يجهلون الترفاس بل ولم يسمعوا بمثل هذه الثمار فقد اضطر أن يشرف على إعدادها بنفسه. غسلها جيداً وقطعها إلى أجزاء صغيرة وسلقها وقدمها على العشاء بعد أن أضاف لها قليلاً من الزبد والملح. فما أن ذاقها ابن الروم حتى طار عقله وردد في خشوع:

«هذه نبتة أسطورية» ثم وقف ورقص على رجل واحدة بضعة دقائق. رفع يديه الى السماء وقرأ من «الأوديسة» كأنه يبتهل إلى الله: «كل من ذهب إلى ليبيا وذاق طعم اللوتس ينسى أهله ووطنه ويقيم هناك إلى الأبد».

انتهى من قراءته المسرحية فالتفت إلى الجماعة وقال بلهجة لم تتخلص من تأثير الممثلين:

ـ هوميروس. تذكرت الآن أن اللوتس الخرافي لا يوجد إلاّ في هذه البلاد!

اقتعد الأرض ومد يده ليتناول قطعة أخرى من الترفاس. قال:

ـ لا شك أن جدي مدفون في مكان ما هنا. سحره اللوتس وأغراه لحم الغزال فنسي وطنه وتنكر له.

لم يفهم أحد بالطبع من هو هوميروس ولا ما هي «الأوديسة» فتذكر كونسا كلام أستاذه عندما كان يدرس الجيولوجيا في جامعة كريت. قال المعلم الحكيم وهو يذرع قاعة المحاضرات بقامته الطويلة وجسمه النحيل: «لا أتصوّر إمكانية دراسة أي علم من العلوم التي لها علاقة بالعالم القديم دون قراءة عميقة لهوميروس. هذا ينطبق على الجيولوجيا كما ينطبق على الأرخولوجيا أو الديموغرافيا أو التاريخ أو أي علم آخر. هوميروس أولاً. أنصحكم أن تقرأوا هوميروس قبل كل شيء!».

وكلما توغل في الحياة وتقدم به العمر واكتسب خبرة جديدة كلما تذكر نصيحة هذا المربي برغم أنه انضم في ذلك الوقت لجوقة زملائه اليافعين المغرورين وسخروا من الاستاذ وأمطروه بالدعابات. وذهب بعض المتطرفين من الطلبة الى أبعد فقالوا ساخرين: «إذا كانت علاقة هوميروس حميمة بالجيولوجيا إلى هذا

الحد فلا يضير شيخنا المهيب هيرودوت أن يكون مؤسساً لعلم الميكانيكا الى جانب أبوته لعلم التاريخ! ».

لا شك أنهم مثله الآن يسخرون من أنفسهم ويحتقرون جهلهم بالحياة والعلوم والمعرفة بعد مضي كل هذا الوقت الذي تجرعوا فيه تلك الكؤوس التي اصطلح على تسميتها بـ« التجربة » و« الخبرة » و« الممارسة ».

وها هو طعم الثمرة العجيبة يدفع به إلى الماضي ويغمره بإحساس غامض يؤكد له قائلاً: لقد تذوقت هذا الطعم وأكلت هذه الثمرة يوماً ما فمتى وأين ذلك؟

هنا وجد كونسا نفسه يعود إلى الأرض من رحلته السحرية إلى عالم ما قبل التاريخ ويداعب خصلات عروسه المنسكبة في شقاوة على عينيها الجميلتين ويتمادى في المداعبة فيمد أصابعه يقرصها في أذنها.

ركع في مواجهتها وقال لها أنها لطيفة ورقيقة وتنافس « مور » في الجمال والوداعة! وعندما لعبت الغيرة برأسها ورفعت حاجبيها متسائلة عن « مور » السعيدة الحظ قال لها أن « مور » مجرد قطة. قطة فارسية التقطها منذ ثلاث سنوات من مرفأ الجزيرة وربّاها ورعاها حتى كبرت وترعرعت ونبت لها الشعر الأكرث فوق رأسها وأصبحت قطة فريدة. أجمل قطة في كريت كلها. وقص لها أيضاً كيف أكلت الغيرة قلب ماريا زوجته فانتهزت غيابه عن البيت وأخذت القطة ودستها في سلة صغيرة وألقت بها في صندوق القمامة ولكن القطة عادت بعد يومين وأيقظته في منتصف الليل وهي تطرق الباب بمخالبها. وختم كلامه قائلاً انها قطة أليفة وموهوبة لذلك فازت بغيرة ماريا وحقدها. فادعت بالباطل أنه يغدق عليها بالحب بسخاء يفوق حبه لابنته « دورا » وكان الأجدر أن يوزع مشاعره بينهما، لأن دورا تحتاج أيضاً إلى حنان الأب، وقال كونسا في قصته أن ماريا بكت وقالت انها تتنازل عن حصتها لدورا لأنها لم تعد تطيق أن ترى الأب يهدهد قطة فارسية ويمنحها الحب وتبقى الطفلة مهملة في الزاوية كاليتيمة.

ومضى كونستانتيس يسرد قصته فقال ان سرّ حقد ماريا على القطة راجع إلى أصلها الفارسي لأن ماريا ورثت عن جدّها حقداً تاريخياً على الفرس تعود أصوله إلى حروب ما قبل الميلاد.

لمس نظارته الذهبية على أرنبة أنفه منهياً محاضرته التي لم تفهم منها زهرة شيئاً باستثناء حنينه المدهش لقطة مجعدة الشعر اسمها «مور».

هبط مساء رطب تتخلله هبات متقطعة لنسمات الشمال المحملة بمياه السحب التي تتزاحم فوق البحر البعيد استعداداً لشن حملاتها الموسمية ضد مدن السواحل المحظوظة!

جاء السردوك بأكوام الحطب وأشعل النار في حين إنهمك مغري في عجن الدقيق لتحضير خبز الملّة.

بعد قليل عبقت الصحراء برائحة الشواء.

لحم الغزال مشوياً ألذ طعماً.

النكهة الأسطورية في اللحم جعلت كونسا يشعر بالدوار.

بالغ مغري في العناية بالطعام وأصر أن يريهم كيف يمكن تقديم أشهى المأكولات بمساعدة أدوات بدائية: الأرض والنار. فدس قطعاً من الترفاسة تحت الرماد بجوار رغيف الخبز وقدمها على المائدة مشوية أيضاً فطار رأس الرقريقي وأغدق على مغري بالثناء ثم استلقى على ظهره وراقب مظاهرة النجوم. كان يفكّر بجهله بهذه القارة العظيمة المجهولة التي يطلق عليها في كتب الجغرافيا: الصحراء الكبرى.

طعم الترفاس والغزال المشوي نقله الى العالم الذي تحدث عنه هوميروس في «الأوديسة» وقال في نفسه أن أجداده على حق عندما ذهبوا إلى ليبيا وأقاموا فيها إلى الأبد ونسوا أهلهم ووطنهم بعد أن ذاقوا طعم الترفاس.

بدأت الصحراء تأسره بسحرها وغموضها.

* * *

في الفجر استيقظوا مفزوعين على دوي الطلقة من بندقية الخرطوش الوحشية.

تسابقوا إلى الوادي في عتمة الفجر فانطلق دوي آخر. في قلب السهل، بين أحراش النباتات البرية، وجدوا مغري وقد أصاب شاتين، باشر في نحر احداهما

في حين ظلت الثانية تنتفض على بعد أمتار في الظلمة.

وقف كونسا على يمينه وهو يفرك عينيه الناعستين، ووقف السردوك على يساره. صاح مغري:

ـ هيّا ساعداني! تتفرجان عليّ والغزالة الثانية تشرف على الموت جيفة!

هجما في العتمة على الشاة المسجاة بين يدي مغري وأمسك كونسا برأسها في حين أحكم مدهوب على قوائمها بكلتا يديه. مسح مغري السكين الملوث بالدم على وبر الغزالة وانتقل الى الشاة الثانية. جرّ السكين على رقبتها فتفجر الدم من نحرها بغزارة. هرع مدهوب لمساعدته ولكن كونسا لم يستطع أن يقاوم أكثر فالتفت خلفه وشرع يتقيأ بصوت عال جاثياً على ركبتيه في الوادي المعتم.

(٨)

عقب عودته من تلك الرحلة قرر كونستانتيس أن يكتشف أسرار الحضارات القديمة ويغزو الصحراء الكبرى فكتب إلى ماريا كي تزوده بمصادر قدماء المؤلفين والمؤرخين من يونان ورومان منفذاً نصيحة أستاذه الحكيم في الاهتداء بمشعل هوميروس حتى في الجيولوجيا!

تناول كراساً مدرسياً رمادياً مليئاً بالملاحظات عن طبقات الأراضي الليبية وانتزع منه بضع صفحات بيضاء طواها بعناية وجلس خلف المقود وقصد المشروع. تبادل حديثاً مقتضباً مع ماريوس وأصدر بعض التعليمات وتفقد ـ في جولة سريعة ـ سير العمل وواصل رحلته نحو الصحراء الغربية. توقف في سهل تحدّه المرتفعات الرملية من الجهة الجنوبية الشرقية وتتوعد بالزحف عليه في حين تشبث بعض الأعشاب البرية بالحياة محاولة أن تستجير من الشمس بالانبطاح والانتشار الأفقي على الأرض.

أحسّ كونسا نحوها بالشفقة وتأمل جمال الصحراء القاسي بنظرة شاملة ثم عاد إلى السيارة وتناول أوراقه واستظل بالسيارة وكتب يخاطب زوجته:

« عزيزتي!

يؤسفني أن تكون مشاغلي الكثيرة في الأسابيع الأخيرة سبباً منعني من الكتابة..»

هرش رأسه بالقلم وتجول ببصره في الفضاء الأبدي وخاطب نفسه: «هذه بداية غير موفقة. مضى شهر ونصف لم أخاطبها بهذه اللهجة. لا. لا. هذا لا يليق! ماريا حساسة! ماريا شاعرة! هذه لغة لا تتناسب مع لهفة زوج عاشق لزوجته التي لم يرها منذ سنة ولم يخاطبها منذ شهر ونصف!».

اقتنع بخيبته في التعبير فمزق الورقة إلى نصفين وألقى بها تحت عجلة السيارة. وقف وتناول سيجارة من علبة في درج اللاندروفر. أشعلها وعاد يحاول ترويض لغته الشعرية:

«عزيزتي الصغيرة!

في البداية أقبلك وآخذك بالأحضان. قبلي لي دورا والشقي الصغير «ميني». ولا تنسِ أن تنقلي قبلاتي أيضاً إلى حسنائي الفارسية «مور» راجياً أن تخبريني في رسالتك القادمة عن خصلات شعرها الأكرت وجلستها المتكبرة.

عزيزتي!

أرجو المعذرة لعدم تمكني في الأسابيع الأخيرة من مخاطبتكم بسبب الانتقال الى موقع عملنا الجديد في واحة «آدرار» في أقصى الجنوب وتعاظم مشاغلنا. وهو أمر تحتمه طبيعة البيئة الجديدة. ولكن بدأنا نستقر، وحاولت أن أتأقلم في المناخ الاجتماعي بالواحة. أهل آدرار لطيفون وميالون لربط علاقات الصداقة بالأغراب برغم خرافاتهم الموروثة عن الأجانب المسيحيين. وهي معتقدات كونها في أذهانهم أولئك المبشرون البلهاء الذين تقاطروا على افريقيا في القرون الماضية لا حبّاً في المسيح ولكن طمعاً في خيرات القارة وبحثاً عن الكنوز فوجد منهم من تخلى عن دينه واعتنق الإسلام كي يذر الرماد في عيون السكان المحليين ويكسب ثقتهم حتى إذا مدّ يده إلى الكنز وحالفه الحظ في الاستيلاء على الذهب نزع العمامة وحرق الجبة وفرّ بالغنيمة الى سواحل المدن بالشمال ليستقل أول باخرة لعبور البحر الى الشاطىء الآخر لتستقبله أوربا كأحد الأبطال دون أن يخطر ببال أحد أن هذا المبشر الراهب الذي يتقمص شخصية المسيحي الزاهد ما هو إلا شيطان استخدم المسيحية في نهب افريقيا وحصل من رحلته على ثروة طائلة!

أم أنك ترين رأياً آخر؟

لا أخفي عليك اهتمامي الآن بالدين الإسلامي. وأكون لك شاكراً إذا ذهبت الى المكتبة القديمة في شارع سينيكا وحصلت لي على بعض المصادر التي تتناول الإسلام. إبحثي عن القرآن قبل كل شيء.

كما لا يفوتني أن أخبرك بأن باهتمامي بالصحراء الكبرى قد اشتعل مؤخراً بعد زيارة شيقة إلى بحر العراء المجاور للواحة. وبالطبع سوف تتساءلين كأي أغريقية عريقة وغيورة على حضارة اليونان: ومن يمكنه أن يهتم بالصحراء الكبرى غيرنا نحن أحفاد هوميروس وهيرودوت؟ نعم. نعم. ابعثي لي بهما قبل كل شيء لأعيد قراءتهما جيداً. ابعثي أيضاً بقية المؤلفين اليونانيين والرومانيين (لا تنسي أن الرومان جاءوا إلى هذه البلاد أيضاً وحكموها زمناً طويلاً فرأيت أن استفيد بحكمتهم وآرائهم في طبائع سكان شمال القارة. ابعثي القدماء. وأخص بالذكر (بعد هوميروس وهيرودوت طبعاً) بلوتارخ، تيت ليفي، تاتسيت، وبليني...».

توقف عن الكتابة ورمى بعقب اللفافة على الأرض. التفت يميناً ويساراً وانكب على الورق يختتم رسالته:

«لا أعرف حتى الآن ما إذا كنت أستطيع أن أتمتع باجازتي هذا العام نظراً لكثافة العمل في الموقع الجديد وسوف أحاول الإفلات عندما يحين الأوان. هيا إذن قبليني واقبلي قبلاتي لك وللطفلين وللحسناء مور..».

ثبت نظارته على أنفه بحركة تلقائية وتفصدت بضع حبات من العرق على جبينه قبل أن يختتم خطابه بأكذوبة مخجلة. استغفر الرب في سرّه ورسم إشارة الصليب على طريقة الكنيسة الارثوذكسية وكتب بأصابع ترتجف: «المخلص إلى الأبد. كونسا.». ثم تذكر أنه أشهر إسلامه فرفع يديه ورأسه إلى السماء وتوسل الله في ضراعة: «سامحني يا رب».

جلس خلف مقود اللاندروفر مقرراً العودة الى الواحة. فكر وهو يدوس على البنزين: «آه لو تعرف ماريا ما فعلت! ستركب البحر على قطعة خشب وتكسر رأسي بأول قضيب حديدي يقع في يدها! لو علمت بالأمر فلن ينجيني من القصاص حتى لو تدخل أرباب كل الأديان السماوية والأرضية! رحمتك وشفاعتك يا رب الدينين: المسيحي والإسلامي!».

لم يفت مختار الساطور أن يحدثه عن مذاهب الإسلام الأربعة بكثير من التفاصيل المملة المعتمدة على الأساطير والخرافات. فقرر أن يصحح معلوماته عن مذاهب الإسلام فبحث عن كتاب سمين لمؤلف فرنسي يحمل عنوان «الإسلام في شمال افريقيا» فلم يعثر له على أثر. يبدو أنه ضاع أثناء الانتقال من مقرهم السابق في وادي الآجال. حاول أن يشحذ ذاكرته ويسترجع المعلومات القيمة عن المذاهب والفرق الإسلامية الواردة في المؤلف ولكن تعدد القصص وتداخل الأحداث والتواريخ والأسماء، يجعل استعادتها الآن أمرا معقدا ومستحيلا.

فكر في ورطته طويلا وهو يخرق باللاندروفر الشرهة التموّجات البديعة التي ترسمها الرياح على صفحة الرملة الذهبية.

* * *

بعد أيام من عودتهم من رحلة الصيد (التي يطلق عليها كونسا شهر العسل) جاء مدهوب السردوك وقال يخاطب مغري: «يبدو أن الفتنة بين الرقريقيين قد نشبت. العمال يؤكدون أنهم سمعوهما وهما يتشاتمان ويتعاركان. أخشى أن تكون المرأة هي السبب». ويبدو أن السردوك نسي أنه ساهم بنفسه في صب الزيت على النار وتصعيد الفتنة بينهما عندما اختلى بأمود في الصحراء، وهمس له: «ماريوس حاقد على المدير. قال ان كونسا باع روحه لشيطان المسلمين في سبيل امرأة لقيطة» مستبدلاً كلمة «رخيصة» بوصف «لقيطة» (وهي أحط كلمة يمكن أن يوصف بها مواطن في الواحة) فأثار هذا التحريف البسيط جنون زهرة واعتبرت ذلك طعناً في شرفها فشحنت زوجها ضد ماريوس فتخاصما ونشب بينهما العراك.

مرّ أسبوع قبل أن يتنابزا بالألقاب مرة أخرى ويتطور بينهما الخلاف في اجتماع عاصف خرج ماريوس على أثره وذهب في زيارة عاجلة للشيخ غوما في مقر إقامته النهاري تحت أنقاض أم النخيل وقال له أنه ينوي أن يفشي له سراً خطيراً لم يعد ضميره يسمح له أن يكتمه في صدره. لم يفهم الشيخ فاضطر كبير الخبراء للاستعانة بلغة السردوك لترجمة السرّ إلى لغة الشيخ غوما. قال ان

كونسا يتآمر عليه وعلى الحكومة ويصرّ أن يستمر الحفر في تلك المنطقة التي لا تحمل في جوفها قطرة ماء واحدة. وتحدث طويلاً عن الجيولوجيا وطبقات الأرض بلغة لم يفهم لا الشيخ ولا السردوك كلمة من مصطلحاتها المعقدة فانتهى ماريوس الى هذه النتيجة التي جعلت الشيخ في النهاية يطمئن الى تقديرات كبير الخبراء وحسن نواياه: «... اعترضت منذ البداية على اختيار الموقع ولكن كونسا أصرّ أن نبدأ الحفر هناك. أنفقنا المال وضيعنا الجهد وأهدرنا الوقت وانتهت مهلة التنفيذ وقارب ميعاد التسليم حسب ما هو مبين في المادة الحادية عشر الفقرة ب من التعاقد مع المصلحة» قال ماريوس على لسان المترجم مدهوب ثم احتقن وجهه وأشعل سيجارة نفث منها خيطاً من الدخان في وجه الشيخ وأضاف في ضيق: «.. أنا أعرف ماذا يريد أن يفعل. انه ينوي أن يلجأ إلى الغش ويضلل السلطات فيكتب تقريراً يدعي فيه جفاف الينابيع الجوفية في كل المنطقة فيكسب الصفقة ويستولي على ٧٥٪ من القيمة الاجمالية للعقد». عاد يسحب الدخان من لفافته في نهم ويضيف بتوتّر: «.. ولكني أقسمت له أني لن أضع توقيعي تحت هذا التضليل فأخون ضميري وأدعم الغش. أنا أقترح أن نغير الموقع ونجرب حظنا جنوباً.». أيده الشيخ غوما وأضاف تعديلاً بسيطاً على الموقع عندما حدد المكان: «.. بل في الجنوب الشرقي» واقتعد الأرض وتناول عوداً ورسم به خريطة دقيقة للنهر السفلي الذي يجري البحث عن روافده. قال: «.. النهر هنا. ينحرف في شكل قوس مشدود. يأتي من وادي الآجال ويعبر بحيرات الدوادة في بحر الرمال ويطل على الواحة من هذه الجهة. وينحرف هنا في منطقة السبخة فتستولي عين الكرمة على نصيبها من الماء وتستمد ينابيعها منه، ثم يمضي النهر منحدراً جنوباً ويتفرع الى روافد يستمد منها بئر اطلانطس نصيبه أيضاً. ولكن هذا الرافد جف في السنوات الأخيرة.» رسم الشيخ دائرة حول الموقع الذي حدده وخاطب المترجم: «قل له أن الحفر يجب أن يتم في هذا المكان. سوف تأتي معي لنتحدث إلى المدير.».

وبالفعل جرجر غوما مدهوب السردوك وطرق باب كونسا في المعسكر. ويروي السردوك أن الرقريقي أحس أن الأمر لا يخلو من وشاية فتولى الدفاع عن نفسه وهو يتقافز هنا وهناك أمام الشيخ الذي هدده بسبابته وقال في لهجة تكشف عن وعيد مكتوم: «بلغني أنك تريد أن تلعب برزق الأطفال والعجزة وتقتلهم جوعاً وعطشاً! تتآمر على النبع. إياك! تتظاهر بالتوفيق في اختيار المكان

وتستمر في الحفر في المنطقة الغربية خارج حزام النهر حتى إذا انتهت مدة العقد لملمت آلاتك ورافعاتك وحفارتك ورحلت. إياك! هذه حيل لن تمر. يجدر بك أن تنقل حفاراتك الى المنطقة الجنوبية الشرقية إذا أردت أن تقدم الدليل على حسن النية». لوح بيده في الهواء ساخطاً وهو يستدير للانصراف.

وقف كونسا محتقن الوجه يتابعه حتى اختفى خلف شجرة نخيل تتشبث بالأرض وتنتشر أعرافها الكثيفة بوضع أفقي.

بعد يومين كانت الآلات الوحشية تنقل ضجيجها الذي لا يتوقف وتزحف نحو الشرق في تلك المساحة من السبخة التي تتوسط العراء الممتد بين غابة النخيل وجبال الرملة.

(٩)

مع حلول الشتاء تدفقت الينابيع وتفجر الماء في النبع.

تصاعدت المياه محملة بالطين والأوحال عبر الفضاء فتجمهر الناس وتزاحم الأهالي يتفرجون على جبل الماء الذي يشق السماء ويعلو ويعلو حتى يبلغ مستوى أعلى نخلة في الغابة المجاورة ويساوي في طول القامة قمة جبال الرملة الجنوبية.

تعرّى الأطفال واندفعوا يتقافزون تحت الماء الممزوج بالطين والأوحال وهم يرددون الأغاني التي تندد بالعطش وتلعن الجفاف، تمجد السيول والأمطار. الأغاني التي توارثوها عن أهلهم وجلبوها معهم من الصحراء.

عجز كونسا وعماله عن السيطرة على المياه فاضطر الأهالي لأن يساعدوا في إقامة السدود الترابية لمنع تسرب النهر وإغراق السبخة المجاورة التي بدأت تكوّن بالوعات رخوة من الأوحال تتداعى وتهدد بابتلاع المارة القادمين من الغابة أو المتجهين إلى مقر القبيلة الجديد عند حذاء جبل الرملة الشرقي..

وبرغم كل الاحتياطات فإن المياه استطاعت أن تغافلهم وتتسلل. تحت الأرض. لتغمر السبخة فترجرجت الأرض في بقعة كبيرة وتوعدت بابتلاع المارة فأقام غوما حولها سياجاً من أعراف النخيل. ولكن حماراً انطلق من الغابة وضل الطريق

اجتاز السور الجريدي فابتلعته البالوعة. كان أول الضحايا. اعتبر الأهالي ذلك تحذيراً.

ضرب الأهالي أكفاً بأكف وتحسروا على الثروة الضائعة وألح الشيخ غوما على كونسا لايجاد حيلة لايقاف تدفق المياه. وعد الرقريقي بالاسراع في اعداد غطاء الإسمنت ليحكم إغلاق فوهة النبع مما سيساعد على التحكم في تصريف المياه كلما استدعت الحاجة.

أما الشيخ الجاروف فوجدها فرصة للنيل من الشيخ غوما فانبرى يحرض الأهالي ويردد في مجالسه: «النبع خطر على المياه في الواحة. انظروا بالله كم من المياه العذبة يضيع في الهواء ويتدفق عبثاً! إذا استمر الأمر فإني أعدكم بعطش قريب! » فسارع المتطوعون لاشعال نار الفتن وأبلغوا غوما بحملة الجاروف فلم يعلق بكلمة. تفرغ لإقامة المزيد من السدود الترابية لمحاصرة السيل المتدفق من باطن الأرض لقطع الطريق على المياه ومنعها من اكتساح الرقعة الخطرة. واكتفى بتذكير كونسا للتعجيل بإعداد غطاء الاسمنت الذي وعد به.

بعد أيام استطاع كونسا أن يسدّ الفوهة بالغطاء الإسمنتي الموعود مبقياً على فتحة صغيرة تتدفق عبرها المياه عند الحاجة لري الحقول بواسطة صنبور من المعدن يتحكم في تصريف الثروة.

وقف غوما بجوار النبع وراقب ألسنة المياه وهي تنساب عبر قنوات صغيرة تكتسح الصحراء العطشى فتمتصها مسامات الرمال النهمة فتختفي لتتسلل الى أحشاء الأرض مرة أخرى. توضأ من ماء النبع وأدّى صلاة العصر بجوار نخلته الشهيدة. جلس خاشعاً مستغرقاً في قراءة التسابيح.

قرأ الفاتحة أيضاً على أرواح كل الشهداء بداية بنخلته الهيفاء ونهاية بأخته الزنجية مروراً بكلبه النبيل. توجه الى الجامع حيث شاءت الصدفة أن يلتقي بالشيخ الجاروف. التقاه في المدخل الذي يفضي إلى الباحة حيث يقتعد القرفصاء متسوّل مقعد نزل الواحة منذ أيام بصحبة قافلة تجارية عابرة يرافقه أحد المغامرين الباحثين عن كنوز الصحراء. ارتطم الشيخ غوما برجل المتسوّل الكسيحة.

ترنح غوما وفقد توازنه فانتهز المتسوّل الفرصة وأمسك بتلابيبه وهو يصيح بإلحاح: «حسنة لله يا سيدنا. حسنة في الدنيا يكافئك الله بأحسن منها في

الجنة». مدّ يده في جيبه وألقى له ببعض القروش على منديل باهت تتناثر فوقه البقع افترشه أمامه على الأرض. اندفع غوما إلى الأمام بتأفف فاصطدم - في غمرة المفاجأة والضيق - بالشيخ الجاروف الذي كان خارجاً من الجامع بعد تأدية صلاة العصر.

تبادلا نظرة طويلة قبل أن يوجه تلك الاهانة التي ظلت تتردد على شفاه الفضوليين زمناً طويلاً. أمسك غوما بأنف عبد الجليل وهزه بين إصبعيه يميناً ويساراً (وهي نفس الحركة التي سبق وأن نفذها ضد الخرفاوي فقضى على مستقبله في الواحة واضطره أن يهاجر الى الشمال بل وانتهى به الأمر الى تقديم الاستقالة والاعتكاف في بيته بمدينة ساحلية منتظراً الموت في خشوع.) واقترب من وجهه وحدّق في عينه وقال بصوت مكتوم (والعهدة هنا على الشحاذ الذي روى الواقعة إذ لم يكن هناك شاهد سواه)، «الرجل الحقيقي هو الذي يواجه خصمه ويجاهر برأيه، ولكنك ما زلت تصرّ على اسلوب النساء! تتقوّل في القفا وتعمل في الخفاء وتطعن من الخلف فمتى نراك تتعامل برجولة؟ بلغتني أخبار حملتك على النبع وسمعت نغمة لم أعهدها في الشيخ الجاروف وهي حرصه على المياه في الواحة. فإيّاك! ثم إيّاك!» هنا أطلق سراح أنفه وواصل طريقه الى الداخل في حين تسمّر الجاروف في مكانه. ثم التفت يميناً وشمالاً حتى تأكد أن أحداً لم يشاهد الموقف عدّل من وضع جرده على منكبه وركل الشحاذ بقسوة منفساً عن حقده مطمئناً نفسه الى أن هذا المتسوّل لن يستطيع أن يروي ما حدث لأن فقدان البصر سوف يسهل عليه الطعن فيما سيشيعه. وبالفعل، ما لبث الجاروف أن قام باستغلال عاهة الشحاذ فتساءل في أول جلسة شاي مراهناً على صمت الشيخ غوما، طاعناً في الرواية التي أشاعها الشحاذ: «قولوا لي بالله: كيف يستطيع الأعمى أن يكون شاهد عيان؟» ثم ردد المثل القائل: «ليس من رأى كمن سمع» دون أن يقرأ حساباً لمؤهلات هذا المتسوّل.

وكانت أولى هذه المؤهلات قدرة الشحاذ على قراءة الكف وسرد ماضي أهل الواحة بصورة أثارت دهشة الأهالي فزادوا في إكرام ضيفهم وأغدقوا عليه بالهبات والصدقات. ويبدو أن الشحاذ وجد الطريق الى جيوب هؤلاء البسطاء فعمل على تطوير «مهنته» وأدخل عليها تعديلات أكسبته ثقة الأهالي. منها قيامه بسرد أطراف القصص التي وقعت للزبون، كأن يبادر بالقول: «أنت لم تتناول عشاءك البارحة. نمت بلا عشاء!» أو «.. أنت داعبت زوجتك ثلاث مرات البارحة.

الجيران أخبروني بأن صراخها في الليل منعهم من النوم! ».

كان الشحاذ معصوب العينين بخرقة بالية سوداء. يكسو الشعر المجعد المتسخ وجهه ويديه. أما رجلاه الكسيحتان فملفوفتان في طيات من القماش القذر. اتخذ من سدّة الجامع مقراً دائماً. يقضي الليل في قراءة الأوراد والتمتمة بالتسابيح والأذكار، وفي الآونة الأخيرة - بعد أن انطلت حيله الجديدة في كسب الرزق - طاب له الزحف على ركبتيه ويديه عبر الأزقة في الحي القديم. يقضي النهار تحت الجدران المعتمة يطلب الصدقات من المارة ويقرأ أكف النساء المخضّبات بالحناء. ويبدو أن هذه الطريقة راقت له الى حد جعله يغيب في الأزقة الضيقة أياماً وليال حتى علق أحد الخبثاء قائلاً: « .. ضيفنا المبجل فضّل الحي القديم على سدة الجامع لأن الراغبات في قراءة الكف أكثر هناك. وأيديهن أدفأ وأرحم وأنعم من أيدي أزواجهن، هن أجزل وأكرم في العطاء! » وكثيراً ما يعلق خبيث آخر: « هن أجزل في العطاء بنوعيه! ».

يستقبل الحضور النكتة بالضحك والتصفيق ويصبون اللعنات على رأس المتسول بعد أن يتهموه بالدهاء. ويؤكد العقلاء أن التسكع بين الأحياء والأزقة هو الذي ساعد المتسوّل على تقوية مؤهلاته وتجميع مادته في قراءة أكف أهل الواحة البلهاء! انهم يمدونه بالمادة في الليل ليندهشوا ويفرغوا جيوبهم بين يديه وهم يسمعون نفس المادة من شفتيه في النهار!

تكشفَ مواهب المتسوّل الضيف وقدرته على قراءة ما خفي عن البصر جعل الأهالي يميلون الى تصديق روايته حول « حادثة الأنف » فرددوها كواقعة مسلّمة. هذا أثار حفيظة الجاروف فأشبعه ركلاً كلما مرّ عليه وهو في طريقه الى الجامع أو أثناء خروجه منه خاصة في تلك الأوقات التي تخلو فيها الطرقات من المارّة كالقيلولة أو قلب الليل.

ولكن الكيد للشحاذ لم ينقذ الجاروف من تصاعد الشائعات وتطور الأمر الى الفضيحة فعيره الكبار وسخرت منه النساء ومشى خلفه الصغار في مجموعات تصفق وتردد بإيقاع جماعي عبارات تصمه بالجبن، وتطعن في أحقيته لمنصب المشيخة لعرف أن الصغار إنما يتحدثون بألسنة الكبار فانقبض قلبه وشعر بالوحدة والفراغ حتى أنه فكر لأول مرة في الاستقالة.

انزوى في البيت وأدمن اللاقبي حتى قلقت زوجته الشابة بعد أن باح لها في إحدى الليالي برغبته الصادقة في الانتحار. ويقال ان هلعها عليه في تلك الليلة هو الذي منحها الإلهام على أن تقدم له أجمل هدية انتظرها طويلاً كانت كفيلة بأن تجبره على إعادة النظر في قرار الإنتحار: لقد رزق الشيخ عبد الجليل الجاروف - بعد طول انتظار - بمولود ذكر مؤهل لأن يرث منه مقاليد الحكم في الواحة.

انطلقت الزغاريد وتزاحم الزوار ونحرت الذبائح احتفاء بالحدث أما مهمدو فقال لغوما في خلوتهما المسائية: «هذا نذير شؤم. لا ينجب آل الجاروف إلا إذا لاحت مصيبة في الأفق! أنجب الشيخ عاشور فجاء سعادي بك ونكل بالواحة. أنجب نجله عبد الله فدخل طابور الغزاة آدرار وهم يرفعون رؤوس الشهداء على رؤوس الحراب. علينا أن نتوقع سيلاً يجرف آدرار هذه المرة!». وأعقب ذلك بضحكة قصيرة.

لم يعلق غوما.

غرق في الذكريات وهاجر إلى الماضي.

2 ـ الغزو

(١)

لم يحظ بالاشتراك في المعارك التي جرت على الشريط الساحلي ـ في أيام الغزو الأولى ـ إلاّ عدد قليل من أهل الصحراء والواحات الجنوبية.

والسبب عائد إلى قيام إيطاليا، بصورة مفاجئة، بقطع المحادثات مع الأتراك واللجوء إلى استخدام القوة ضد مدن «الشاطىء الرابع»[٤] فحال القصف المباغت دون وصول رسل زعماء المجاهدين الى الدواخل في الوقت المناسب مما أربك المقاومة ضد الغزاة وحال دون تنظيم المقاتلين على الوجه المطلوب فاستطاع أن يشارك في القتال النفر القليل الذين توافق وجودهم بالمدن الساحلية بمحض الصدفة أو الذين شاءت الظروف أن يتواجدوا ـ عند احتدام المعارك ـ في المناطق القريبة لشاطىء البحر.

ولكن نداء زعماء المجاهدين لم يصل إلى مناطق الدواخل إلاّ بعد مرور زمن قاس وطويل تلقت فيه صفوف المجاهدين ضربات موجعة اضطرتهم إلى إخلاء الساحل والتقهقر الى المناطق الداخلية في جبل نفوسة، وانتهزوا ـ أخيراً ـ الفرصة وأعادوا تجميع صفوفهم وبعثوا بالرسل محملين بنداءات الجهاد لأهالي الصحراء والواحات. والمفاجأة كانت في وصول الرسل في نفس الوقت تقريباً الذي استطاع فيه العدو اختراق الخطوط الأمامية والتوغل في الصحراء. فاستيقظ الأهالي ذات صباح على أخبار مزعجة تقول ان الغزاة تدفقوا في الخلاء وهم الآن على مشارف سبها يتهيأون لاحتلال قلعة القارة.

تزاحم أهالي آدرار في الساحة الكبيرة أمام الجامع وتقاطر المتطوعون من

الجهات الأربع يحملون المعاول والفؤوس والمناجل يترنمون بالابتهالات ويتمتمون بالآيات في قراءات جماعية.

انتشروا في الساحة خاشعين واستمعوا الى خطبة الشيخ المراكشي وهو يدعوهم الى ضبط النفس والتزام الهدوء، ثم تحدث طويلاً عن واجب الجهاد الذي حث عليه القرآن وتناول في خطابه بالتفصيل أنواع الجهاد بداية بالجهاد ضد النفس اللئيمة الأمّارة بالسوء ونهاية بالجهاد المقدس ضد الغزاة الذين يسعون لسلب شرف الأمة واستعباد الذين ولدتهم أمهاتهم أحراراً. وأعلن في ختام كلمته أن أعيان الواحة وافقوا بالاجماع على اقتراحه بشأن قواعد اختيار العناصر التي ستحظى بشرف المشاركة. تشترط أولى البنود على قبول مقاتل واحد قادر على حمل السلاح من كل أسرة على أن يتم استثناء عائل الأسرة الوحيد. هنا تعالت الساحة بالصيحات وعبارات الاحتجاج، ولكن الشيخ المراكشي تجاهل الاعتراضات وواصل خطابه قائلاً انه كلف عدداً من الأعوان لمساعدته في إعداد القوائم والتحقق من توفر الشروط والمواصفات فاستمرت الحناجر تهتف بالاحتجاج.

في تلك الليلة تكوّم أولئك الذين لم يقع عليهم الاختيار في الساحة الكبيرة وقضوا ليلتهم أمام الجامع أملاً في أن يرق قلب المراكشي ويسمح لهم بالاشتراك. ولم ييأسوا حتى عندما انطلقت القافلة بعد يومين نحو الشمال، فرافقوا ركبها حاملين فؤوسهم ومناجلهم ومعاولهم على ظهورهم مرددين عبارات التوسل. مشى المراكشي في مقدمة القافلة يقود ناقة نحيلة بائسة هدّها الجوع يحمّلها ببعض الأمتعة. أما منكبه فقد توّجه بتلك البندقية العثمانية القديمة التي رآها الأهالي في تلك اللحظة مهيبة لأنهم لم يكتشفوا دورها الخفي إلاّ الآن عندما قرعت طبول الحرب في الشمال.

راقب مهمدو جموع المتوسلين البؤساء وهم يتضرعون للانضمام للقافلة حتى بلغوا سفوح السلسلة الجبلية الرمادية في الشمال فيئسوا ووقفوا يمتشقون أسلحتهم البدائية يرقبون القافلة المحظوظة التي بدأت تصعد الطريق المفضي إلى جبل الحساونة.

كان مهمدو يراقب الموقف الحزين من مدخل مغارته في قمة الجبل. وقد أحس بالشفقة ليس نحو المتخلفين الراغبين في الالتحاق فقط ولكن نحو أولئك الأشقياء الذين غادروا لملاقاة عدوّ مجهّز بأسلحة خرافية تروى عن فعاليتها

الأساطير.

في تلك الأيام بيعت البنادق العثمانية الصدئة بأسعار خيالية. وترددت في الواحة حكاية عن فلاّح ضحى بحصته من ماء عين الكرمة واستبدلها مقابل بندقية عثمانية من ذلك النوع الذي يوفق في اطلاق رصاصة واحدة من بين الست رصاصات!

وبرغم حلول الخريف وانقضاء موسم الحمّى إلا أن مهمدو كان وقتها يغالب المرض. نوع الحمّى أقعده عن مصاحبة صديقه المراكشي ومنعه من الانضمام للقافلة حتى تناهت الى سمعه انتقادات الأهالي التي لم تقم لعلّته وزناً فعيّرته بالجبن. تناقلت الألسن: «العراف يتمارض. انه يعرف أن الجهاد ضد الجن شيء والجهاد ضد الطليان شيء آخر! حقاً ان الحرب تضع الناس على المحك وتفرز معدن الرجال!». وفي أحد الأيام فوجيء بكوكبة من الصبية تتزاحم أمام المغارة تصفق بايقاع منتظم وتردد في صوت جماعي: «مهمدو مرة! مهمدو مرة!» فأدرك أن أعيان الواحة الذين لا يصدقون مرضه هم الذين أرسلوا فريق الصبية لاستفزازه.

والواقع أن الأمراض لم تتركه منذ إصابته بتلك العلة المجهولة (التي ساقته إلى القبر وعادت به إلى الحياة مرة أخرى) عند صراعه مع شبح تامزا. ما أن يتماثل للشفاء زمناً ويتمتع بالصحة التي لا يعرف قيمتها إلا المرضى المعلولين أمثاله حتى يسقط فريسة الحمّى من جديد. وقد توافق مرضه الأخير مع وصول مبعوثي المجاهدين وتصاعد نفير الحرب فزاره الشيخ المراكشي قبل الانطلاق بيومين ووعده بأن يقتل نيابة عنه ثلاثة جنود إيطاليين. أعقب ذلك بضحكة عزاء وتمنى له الشفاء قبل أن ينصرف. تعمد ألاّ يودعه بالمراسم حتى لا يثير شجونه فاكتفى بالتحية والأماني بليلة سعيدة كأنه سيلتقي به في الغد.

ولكنهما لم يلتقيا بعد ذلك أبداً.

مرت أسابيع غالب فيها المرض وصارع الاغماء والحمّى قبل أن يهرع إلى السوق بمجرد أن شعر بالتحسن. هناك حالفه الحظ واشترى بندقية صالحة للاستعمال من قافلة تجارية متجهة صوب آير كما استطاع أن يبتاع ناقة قادرة على حمل الأثقال وضع على ظهرها أمتعته وأحكم رباط السرج قدّام السنام وانطلق عبر طريق الشمال.

ولكن الحظ لم يحالفه للاشتراك في المعارك. وجد معركة القارة قد أسفرت عن مصرع عدد كبير من خيرة المقاتلين من مختلف الواحات كان الشيخ المراكشي أحدهم. وتراجع الغزاة الى الوراء وعادوا للاحتماء بالمدن الساحلية بعد الهزائم التي منوا بها، فأجبرتهم، مع الوقت، على توقيع معاهدة الصلح التي كان من نتيجتها تأسيس الجمهورية الطرابلسية في العشرينات.

توقفت الصدامات وأمر الزعماء بتسريح المقاتلين وعاد مهمدو الى كعبته في المغارة وتمتع الأهالي بالسلم زمناً لم يدم طويلاً. إذ انهار الصلح بمجرد أن التقط العدو أنفاسه وتلقى الامدادات من البحر فخالف بنود المعاهدة وخرق وقف إطلاق النار. تجددت الاشتباكات على طول الساحل، فأقبل الرسل مجدداً، وتنادى أهالي الصحراء والواحات لصد الغزاة الذين يستعدون الآن للتغلغل في الدواخل والعودة الى أعماق الصحراء.

في الرحلة الثانية لصد هجوم الطليان جاءه غوما في المغارة.

(٢)

كما كانت واحة آدرار كعبة للتجار ونقطة لالتقاء القوافل في عصرها الذهبي فإن موقعها الاستراتيجي في قلب الصحراء ساعدها في أن تتحوّل إلى مركز لتجمع قبائل الصحراء أثناء تنظيم الحملة الثانية فساهمت في لم الصفوف استعداداً لتزويد المعارك الدائرة في الشمال بالوقود البشري.

بعد أن عاد من رحلته الأولى خائباً تعود مهمدو أن يقف فوق قمة الجبل في مدخل معقله مع الغروب ويراقب الضيوف الملثمين وهم يتقاطرون على الساحة الكبيرة ويلتحقون بالجامع بعد أن تحول إلى معسكر للتجنيد وفرز العناصر اللائقة لحمل السلاح.

مع حلول المساء وتكاثف العتمة خرج لتأدية جولته المسائية. سنّه كان يسمح وقتها بجولة أخرى ليلية الى جانب مشواره الصباحي المبكر فتجمع الأطفال واقتفوا أثره وهم يصفقون ويرددون: «مهمدو مرة!». انتهز الكبار فرصة عودته الخائبة من الواحات الشمالية فأطلقوا الصغار خلفه ليسمعوه التهكم. تألم لانقشاع

الغمة قبل وصوله وتألم أكثر لأنه لم يكن بجوار الشيخ المراكشي عند استشهاده في تلك المذبحة الفظيعة التي أقامها الغزاة ضد الفدائيين في قلعة القارة قبل انسحابهم نحو الساحل بأسابيع قليلة.

تدرّب على ضبط النفس وتجاهل هتاف الصبية وإهاناتهم قائلاً في نفسه أنهم إنما يتحدثون بألسنة آبائهم الذين نسوا دوره ضد بطش القائمقام العثماني كما نسوا تضحية الشنقيطي قبله وسوف ينسون الآن المراكشي الجليل. ولكنه لن يفقد الأمل في وجود نفر يتحلون بالوفاء فيذكرون لأبنائهم ما حدث بالأمس في آدرار وما يحدث اليوم وما سوف يحدث غداً. وقلما يوجد الأوفياء الذين يتمتعون بالذاكرة. وما دام الأمر كذلك فلا يضر أن يعلو صراخ الصغار بلغة بعض الكبار الذين يعانون من ضعف الذاكرة ونكران كل فعل جميل.

هو يراهن على المتطوعين الذين يتسللون خلسة الى الجامع ويكتبون بخطوطهم الرديئة وقائع الواحة في صفحات المخطوط الضخم المغلف بجلد الماعز، المحفوظ بين الكتب القديمة على الرف المجاور للمنبر. هناك يكتبون الحقيقة.

اجتاز الربوة الواقعة في نهاية العراء الممتد جنوباً فتخلّف الصبية وتراجعوا. خفت ضجيجهم وغابت أصواتهم. انحرف يميناً ليقفل نصف الدائرة من الطريق الغربي فقابل جماعة من الملثمين الراجلين يقودون قافلتهم باتجاه الحي القديم.

في منتصف الليل زاره غوما وقدّم له شاباً يافعاً طويل القامة حاد البصر وقال له أنه إبنه. وبرغم الربكة والانشغال بالأحداث إلاّ أن غوما لم ينس أن يأتي له بهديته من البرّ: شريحة من لحم الغزال المجفف وجراب كامل من ترفاس الموسم الماضي مجفف أيضاً ومقطع إلى أجزاء صغيرة ما زالت تفوح بتلك الرائحة المجهولة برغم مرور شهور على تجفيفها.

لم ير غوما منذ زمن طويل عندما «ساعده» في أن يتراجع عن نيّته في الفرار والضياع في بلاد الله الواسعة. كان ينوي أن يتوجه الى نهر النيل طلباً لما يسميه «العلم» و«المعرفة» فجعله يعدل عن رحلته بمساندة الرجال الطيبين من أهل الخفاء الذين يحبون غوما مثله ويشفقون عليه من قساوة الغربة وألم الضياع في الدنيا الزائلة. هب معشر الجن لمساعدته في إنقاذ الشاب الملثم القلق الباحث عن الحقيقة في عالم البشر وأجبروه أن يلتفت الى نفسه ليجد «هناك» كل ما يبحث عنه في

الوجود الفاني. قالوا له النصيحة على لسان مهمدو: «استمع الى الصوت الخفي ولا تبحث عن شيء خارج نفسك. تعلّم ذلك إذا أردت أن تنجو وتفوز بالخلاص». فعاد الرجل والتحق بقبيلته في وادي الجعيفري.

خلع غوما نعليه وبندقيته واقتعد الأرض. أومأ لابنه بالجلوس بنظرة. أوقد مهمدو النار وتهيأ لإعداد الشاي الأخضر. بعد قليل لاحظ أن الشاب قد غفا وهو مقرفص. أسبل جفنيه وانتظم تنفسه فعرف العراف أنه استسلم لنوم عميق دون أن يترنح في جلسته.

إنه مجهد.

علّق مهمدو:

- أرى أنه قد ورث عنك كبرياء الملثمين!

فرّك غوما يديه قبل أن يقول:

- هذا لا يدخل في كبرياء الملثمين. كبرياء الملثمين أصعب من ذلك. كل ما هنالك أنه لن يكون ابن الصحراء إذا لم يتعلم كيف ينام وهو واقف أو يتنقل في الخلاء. ذلك يشبه صيد غزالة طائرة في الفضاء بطلقة من صياد يجلس على مهري يعدو. هذا لا يحتاج إلى الموهبة بقدر ما يحتاج الى التدريب.

ثم أزاح لثامه عن فمه وأضاف بارتياح:

- ولكن خبرني الآن: كيف حال الواحة؟ كيف حالك طوال هذا الزمان؟ قيل لي أنك اشتركت في صد الاجتياح الأول.

مروح مهمدو النار بمروحة مضفورة بالسعف الملوّن. قال:

- لا أدعي شرف الاشتراك فقد وصلت بعد المذبحة.

- نسيت أن أعزيك في الشيخ المراكشي. رحمه الله....

- لقد ذبحوه من الوريد إلى الوريد.

- رحمه الله. الحرب هي الحرب..

ـ الحروب أيضاً لها شريعة. شريعة الحرب لا تبيح الذبح وتستنكر التنكيل بالأحياء.

لم يكن غوما على علاقة وطيدة بالمراكشي المرحوم. رحمه في السرّ وقال بصوت مسموع:

ـ هذا القانون لا يجب أن يمنعنا من توقع أسوأ المفاجآت في الحروب. ولكن الجدل الذي يدور في آدرار حول تباطؤك في الانضمام الى القافلة أحزنني.

صمت وراقب العراف في ضوء النار وأضاف كالمعتذر:

ـ لا أخفي عليك تأثري في أن يتأخر عن ركب كهذا رجل مثلك.

رفت ابتسامة باهتة على شفتي العرّاف قبل أن يقول:

ـ عندما جاء رسل الزعماء كنت طريح الفراش. عاودتني العلّة فأقعدني المرض. لم يكلف أحد بالطبع نفسه ويبوح لك بالحقيقة. أطلق الشامتون الأطفال خلفي يعيرونني ويصفونني بأني جبان و«مرة»!

ساد الصمت.

قال غوما:

ـ كالعادة. قالوا نصف الحقيقة وأخفوا الباقي. الأنباء التي وصلتنا في الصحراء تقول ان مهمدو كشف عن معدنه الحقيقي وتباطأ في تلبية نداء الواجب متعللاً بالمرض. تمارض. هكذا قالوا بالحرف: «العراف تمارض بمجرد أن جدّ الجد ولاح في الأفق شبح الرصاص». هذا ما أبلغته لنا الريح في فيافينا البعيدة. حتى الصحراء لها آذان تسمع كما ترى!

سحب الشاب النائم في جلسته نفساً عميقاً ثم واصل سباته ممسكاً ببندقيته في حجره.

قال مهمدو والابتسامة الساخرة ما زالت تعلو شفتيه:

ـ وهل تستغرب أن يكون للقيل والقال أجنحة تبلغ أقاصي الدنيا؟ مرضي كان فرصة استغلها المغرضون للنيل منّي. وشاء سوء الحظ أن تنتهي المعركة في القارة

قبل وصولي فقالوا اني سافرت لا لكي اشترك في الجهاد ولكن كي أشترك في دفن المراكشي في رمال زلاّف. وأعود لممارسة عزلتي في صومعتي على الجبل. هىء ـ هىء ـ هىء ... قرأت كل شيء في عيونهم قبل أن أسمعه من أفواه الأطفال.

سكت وبدأ يخلط الشاي. قال دون مبالاة:

ـ هل تعرف من وراء هذه الدعاية؟

أضاف دون أن ينتظر جوابا:

ـ عبد الله الجاروف. ابن الشيخ عاشور عميل القائمقام الذي دفنه الناس حيّا في الأرض عندما ثاروا ضد البك.

هزّ غوما رأسه المتوج بعمامة بيضاء، وتمتم بصوت هامس:

ـ فهمت. فهمت.

استيقظ الشاب وفتح عينيه دون أن يعدّل من جلسته. رمقه غوما وابتسم في حين قدّم له مهمدو كأس الشاي المعمم بالرغوة.

(٣)

عندما انطلقت القافلة في طريق الشمال شيّعه عبد الله الجاروف قائلاً:

ـ جاء الوقت المناسب يا مهمدو كي ترينا حيلك. نريدك أن تستعمل سحرك ضد أعداء الأرض وأعداء السماء. هذه فرصتك يا مهمدو كي تسكت المشككين!

وأعقب ذلك بضحكة تهكّم مريرة فتبادل مهمدو مع غوما نظرة ذات معنى. أومأ له غوما بالاّ يعيره اهتماماً ثم التفت نحو الجاروف وحدجه بنظرة صارمة.

أجلس مهمدو خلف السرج وتولى قيادة الجمل بنفسه ومشى إبنه بجواره مسافة طويلة ثم تخلّف خطوات عند بلوغ الجبل الرمادي ليتبادل الأحاديث مع شباب القبيلة الذين ساروا خلف القافلة على الأقدام.

هذه هي الدفعة الثانية من أفواج المندفعين للحج إلى ساحة القتال لصد هجوم

الغزاة الثاني. وكانت الدفعة الأولى أوفر حظاً سواء في امتلاك السلاح أو في الحصول على الدواب الصالحة لعبور الصحراء. وقد اضطر المحاربون الى استبعاد الحمير كمركوب بعد أن أثبتت التجربة في معارك الهجوم الأول عدم قدرتها على اجتياز الصحراء الرملية فهلك معظمها في زلآف واضطر أصحابها لحمل أثقالها على ظهورهم. ولم يفت السويعدي إمام الجامع (الذي تولّى تنظيم الحملة خلفاً للشيخ المراكشي) أن ينبه رجال هذا الفوج بالاستغناء عن الحمير والاقتصار على استعمال الجمال والخيول. هذا جعل المتطوعين يبيعون حميرهم وقطعان أغنامهم لاستبدالها بالدواب الصالحة لعبور الرملة.

مشكلة أخرى واجهت الفوج وهي: السلاح!

كانت حيازة السلاح أيام القائمقامية العثمانية محظورة بحكم القانون. وقد سنّ الطاغية نوري بك أحكاماً إضافية أتبعها بإجراءات تنزل أسوأ العقوبات بمن تثبت حيازته للسلاح. تبدأ بالجلد العلني وتنتهي بعقوبة الاعدام شنقاً أمام جمهور الرعية. وهذا ما جعل أولئك الذين يمتلكون هذه البضاعة الخطيرة يحرصون على إحاطتها بالسرية التامة.

وبرغم أن عصراً ذهبياً أعقب حكم نوري بك إلا أن الحائزين على السلاح لم يصدقوا حياة الديمقراطية الجديدة التي عاشتها الواحة وظلّ شبح الطاغية ماثلاً أمام أعينهم، ساكناً في قلوبهم حتى إذا تنادى الشجعان ودقت طبول الحرب قام هؤلاء ببيع تلك البنادق العتيقة بأسعار خيالية جلبت لهم الثراء.

فالتهمت الدفعة الأولى كل ما تبقى في آدرار من سلاح خفي. ولولا أهل الصحراء الذين هبوا لنجدة المحاربين وزوّدوهم بعدد محدود من القطع لاضطرت قافلة الإمام السويعدي أن تتحرك بأيد عزلاء. وبرغم ذلك فإن أغلب المقاتلين من الواحة اضطروا أن يتسلحوا بالمناجل والفؤوس وحتى الهراوات.

أهل الصحراء أيضاً عانوا من أزمة العتاد وإن ظلّوا في وضع أفضل من سكان الواحات. انقطعت هذه البضاعة من الصحراء بعد احتلال السواحل من قبل الطليان فارتبكت تجارة القوافل وصعّد التجار من أسعار البنادق والرصاص إلى أرقام خيالية. ولكن بنادق الصيد العثمانية الموروثة أباً عن جد أنقذت موقف الملثمين فزودوا رفاقهم في الواحات بتلك القطع الزائدة التي انتزعوها ممن أجبرتهم القرعة

على البقاء في النجوع لحماية البيوت وتأمين حاجات العجزة والقصّر والمرضى غير المؤهلين لحمل السلاح.

تحرك الفوج على أمل آخر وعد به رسل الزعماء عند زيارتهم فقالوا انهم سوف يتولون توفير العتاد اللازم، كما أنهم سيعملون على تمرين المتطوعين على استعمال السلاح في معسكرات تدريب خاصة أعدّت لهذا الغرض برغم أن تجربة القتال في المرة الماضية أثبتت أن الزعماء لا يستطيعون أن يفوا بوعودهم دائماً مما جعل حكماء الواحة يوجهون النداء تلو النداء للمقاتلين بضرورة الاعتماد على النفس وعلى السلاح الذي بحوزتهم حتى لو كان مجرد معاول وهراوات فجاء أولئك الذين لم تتوفر فيهم الشروط ورأوا أن يبرئوا ذمتهم ويساهموا بنصيبهم فتبرعوا للمحاربين بكل ما ملكت أيديهم من المؤن والأمتعة والنعال المصنوعة من المطاط وجلود الحيوانات. وبرغم كل الاحتياطات والتحوطات إلا أن عدداً كبيراً سار حافياً. ومشى فريق آخر راجلاً وفريق ثالث رحل في القافلة أعزل من كل سلاح.

امتشق مهمدو بندقيته التي اقتناها من القافلة التجارية ولم يستطع أن يختبرها في المعارك الماضية، كما ظلت الرصاصات السبع عشرة التي حصل عليها من نفس التاجر كاملة. أما الناقة البائسة فقد ماتت بسبب فقدان الشهية وسوء الهضم. أضربت عن الطعام شهوراً كاملة فجاء لها بعطار يدّعي الخبرة في معرفة داء الحيوان. كشف عن أنيابها وقال ان حالتها ميؤوس منها لأن الحزن على فراق حيوان عزيز قد تمكن منها. وبالفعل ماتت بعد يومين.

نزل عند رغبة غوما وقبل اقتراحه للاستعانة بجمله في التغلب على الطريق وقطع الصحراء.

تبادلوا ثلاثتهم على المركوب، وبعد مسيرة ستة أيام بلغوا مشارف المرتفعات الجبلية شمال واحات الشاطىء فاستقبلهم رسول زعيم أقرب تجمع للمجاهدين وأخبرهم أن قائد المعسكر لن يستطيع أن يفي بوعده بشأن العتاد لأن معاركهم الأخيرة مع العدو لم تسفر عن غنائم بل ان قصف المدافع اضطرهم الى التراجع والتسليم في أكثر من موقع. طلب منهم أن يتحلّوا بالصبر ويحاولوا أن يتدبروا أمرهم.

كانت هذه أول صدمة خيّبت آمال ضعاف النفوس الذين لم يجربوا الهجرة خارج الواحة ولم يعرفوا الخيبة ولم يسبق لهم أن ذاقوا طعم الهزيمة والاغتراب. ولكن الفلاحين لم يكشفوا عن الشك أو الضعف حتى ذلك الوقت.

استمرت المسيرة أياماً أخرى. انتهت حدود مملكة الرمال المتحوّلة وتلقفتهم صحراء جبلية قاسية سلخت أقدام الحفاة وأنهكت المشاة المحملين بالأمتعة والمؤن. لم يكن الفصل (بداية الربيع) مواتياً كي تطلق عليهم الشمس أشعتها الوحشية، ولكن طول المسافة وقساوة الطريق ونقص الدواب والماء والمؤن هدّهم وضرب معنويات الكثيرين. خاطبوا أنفسهم: «إذا كان عبور الصحراء بهذه القسوة فكيف بمحاربة الطليان ومواجهة المدافع؟».

نزلوا نجعاً تتناثر خيامه في وادٍ عارٍ من النبات تسكنه قبائل البدو والرعاة. عسكروا على المنحدر بجوارهم.

استضافهم أهل النجع بالماء ووزعوا عليهم الشاي الأخضر ووقفوا يتفرجون على أرتال الرجال المنطرحة على طول المنحدر: وجوه تتصبب بالعرق، وأقدام تنز بالدماء، وجوه ممتقعة، وشفاه متشققة يعلوها الزبد. لم ينتظروا الذبائح من البؤساء، ولم يكن باستطاعة أهل النجع أن يستضيفوهم بغير الماء وقليل من الشاي الذي جاؤوا به في جرادل الماء!

لم يفت مهمدو أن يتندّر على الحادثة فمال على غوما وهمس في أذنه مغتصباً ضحكة عصبية لا تليق: «في حياتي لم أذق شاياً أخضر من جردل ماء! هيء - هيء - هيء!» وعندما لاحظ الامتعاض على وجه غوما ابتلع ضحكته فجأة وأضاف محاولاً أن يضفي لهجة جدية على لغته: «.. إذا كان ثمة شيء يستحق التخليد في هذه الرحلة المباركة فهو شاي الجردل هذا!». سمعه الرفاق المجاورون فحدجه أحدهم بنظرة استنكار، ثم التفت خلفه وبصق لعاب التبغ الممضوغ.

في اليوم التالي واصلوا المسيرة.

لم يروا الغبار في الأفق ولم يتناه إلى سمعهم القصف إلا بعد مسيرة أيام أخر.

(٤)

في المعسكر الكبير انضموا الى جيش المجاهدين القادمين من الواحات الداخلية الأخرى بالاضافة الى المقاتلين النازحين من الواحات الشمالية والمدن الساحلية. أشرف القادة على تنظيم شملهم وقسّموهم الى فرق تأتمر كل فرقة أو مجموعة بقائد معيّن من قبل الزعماء ومدعوم برتبة عسكرية إمعاناً في النظام ومنعاً للفوضى. ولكن لم يستطع أحد من أهل الواحات والصحارى أن يتذكر أسماء هذه الرتب التي رأى فيها الكثيرون تشبهاً بالنصارى وتقليداً للعدو فتجاهلوها عن عمد، محاولين، في نفس الوقت، أن يلتزموا بتنفيذ التعليمات.

في اليوم الرابع وقع مهمدو أسيراً في أيدي العدو.

حدثت الواقعة مع المساء، بعد الغروب بقليل. هدأ القصف المدفعي وتحول النزاع بين الطرفين إلى مناوشات بطلقات نار تسمع متفرقة على طول الجبهة بين الأودية السفلية والمرتفعات الجبلية الفاصلة بين الفريقين.

وأكثر ما أثار حنق غوما هو أن مهمدو لم يقع وهو يخوض غمار معركة ولكنه سقط بين أيدي الطليان وهو يقضي حاجته خلف المرتفع. فتلقفته ألسن الرفاق وصنعوا من ذلك مادة للتندر. سمعهم غوما يقولون: «هذا يليق بالسحرة! متى كان السحرة يتطاولون في القتال؟ طبيعي أن يقبض عليه النصارى وهو يقضي حاجته!» ويعقبوا تعليقاتهم المريرة بالضحكات. ضراوة القتال وقسوة الظروف انتزعت المرح وقضت على روح النكتة فما أن يقع حادث طريف حتى تتخاطفه الأفواه وتتناقله على طول الجبهة.

وهذا ما حصل مع مهمدو. أمطروا رفيقه غوما بالأسئلة الفضولية عن الظروف التي صاحبت وقوع العرّاف الشقي في الأسر! وكان غوما يشيح بوجهه ويخفي خجله تحت لثامه المعفّر بالطين والغبار ويهمهم بعبارات غير مفهومة!

في مساء اليوم التالي، في عتمة الغروب، خيب مهمدو ظن الشامتين وأنقذ رفيقه من الحرج. جاء إلى المعسكر وبحث عن غوما بين المقاتلين خلف المرتفع وأعلن ضاحكاً أنه تمكن من الإفلات! كيف؟! قال باقتضاب وهو يتوسّل أن يعدّوا له كأساً من الشاي الأخضر: «.. هربت! قرأت على رأس العسس آية الكرسي المعكوسة وتعويذة أخرى تقيّد العفاريت تعلمتها من المرحوم الشنقيطي فنام

الحرس وتسللت من معسكرهم. هيء ـ هيء ـ هيء ..». لم يخف غوما دهشته، كما أصغت له جماعة من المحاربين مبهوتين. أسوف (ابن غوما) ابتسم وأحكم زمالته على وجهه وانسحب إلى الخط الخلفي حيث يتجمع شباب القبيلة يعاينون الجرحى ويتبادلون الأحاديث المسائية. سمع تراشقاً برصاص الأسلحة الخفيفة أعقبه صوت انفجار عنيف في نهاية الجبهة غرب المرتفع المغطى بالشجيرات البرية التي تبدو عن بعد مثل سنام جمل يكسوه وبر كثيف.

عاد مهمدو يشكو من الصداع ويتوسل أن ينقذوه بالشاي. اشتكى قائلاً:

ـ سقوني ماء ساخناً كبول الإبل وأطعموني رغيفاً جافاً كالحجر وتلقيت على وجهي اللكمات. هيء ـ هيء ـ هيء.. ولكنهم لم يسلخوا ظهري بالسوط كما يروق للقائمقام أن يفعل بالأسرى.

كانت أوامر القادة تمنع إشعال النار ليلاً فاضطر غوما أن يطوف على المقاتلين من مختلف المناطق بحثاً عن بقايا باردة من الشاي. انتهت جهوده الى الفشل فجاء من أمتعته بحفنة من أوراق الشاي قدمها لرفيقه ونصحه أن يمضغها جيداً ويدسها تحت لسانه. لعابه يزيل الألم ويخفف الصداع.

في قلب الليل عاد العرّاف يشتكي من الوجع ويلحّ، كالطفل، للحصول على كأس الشاي.

قال غوما وهو يوقد النار ويحجبها عن الأنظار بغطاء:

ـ هذه عقوبة الإدمان! شيخ الطريقة يقول ان على الرجل الحرّ ألاّ يدمن شيئاً حتى لو كان مخدع زوجته! أنت تعرف هذه الحكمة أكثر مني!

وبرغم أن مهمدو اشتكى قائلاً ان الشاي ينقصه النضج إلا أن الجرعة أمّنت له نوماً هادئاً!

(٥)

لم يطل صمودهم في الحمادة الحمراء العارية فانسحبوا الى الصحراء الجنوبية. طاردهم الغزاة بالقصف المدفعي حريصين ألاّ يدعوا لهم مجالاً لالتقاط الأنفاس أو

تجميع الصفوف.

خسائرهم كبيرة.

استمرّوا في التراجع حتى انتهى بهم المطاف في محروقة. زودتهم الواحات والقرى الشرقية والغربية بالإمدادات ووصلت القوافل المحملة بالماء والتمر والشاي وأصبحت الصحراء الرملية المجيدة ساعدهم الأيمن. غرقت آليات الغزاة في بحر الرمال العظيم فارتبكت حركتهم ووقعوا في كماشة المجاهدين.

في تلك الموقعة الشهيرة استشهد أسوف وجاء دور غوما كي يقع في الأسر. وكان يمكن أن يسير كل شيء على ما يرام لو لم يعيّروه بالكتب وبصداقته لـ«الساحر الجبان ذي الأطوار الغريبة!» فلعبت كبرياء الملثمين برأسه فاندفع الى الأمام رافضاً إطاعة القادة الذين أمروا بالانسحاب تنفيذاً لخطة مبيتة أقرّت ليلاً قصد بها المناورة وإنهاك العدو في رمال زلآف مستغلين عدم خبرته بحرب الرمال.

اتبع القادة والزعماء خطّة جديدة تقتضي شن غارات فدائية ليلية مفاجئة على تجمعات العدو والانسحاب إلى الكثبان الرملية التي يصعب على الطليان اجتيازها بآلياتهم الثقيلة وسياراتهم الشاحنة.

أثبتت الهجمات المباغتة فعاليتها في إرهاق القوات المعادية فأجبرتهم على التراجع إلى حدود الصحراء الجبلية وعسكروا في أطراف محروقة بانتظار وصول الإمدادات من طرابلس كي يعوّض العدو خسائره ويعيد تنظيم صفوفه.

في اليوم السابق على الاشتباك نهض في عتمة الفجر. تيمّم وصلى وأصغى لأنين الجرحى المتقطع. كشف الأفق عن خيوط الضوء الأولى فأخرج من أمتعته كتاباً سميكاً متآكل الجوانب وفتحه في حجره وشرع يقرأ بصوت مسموع.

كانت تلك مقدمة ابن خلدون. جلبها معه ضمن ما جلبه من كتب عندما عاد الى مخيمات القبيلة من رحلته الأليمة الى الواحات. مشهد الكتب المهيب جعل أقرانه في القبيلة يحيطونه باحترام لا يستحقه ويعاملونه بقداسة «العالم» الذي يعرف خفايا الدنيا ويقف على أسرار الكون. وحتى عندما نادى المنادي وأقبل الرسل ودقت طبول الحرب حاول العقلاء أن يثنوه عن عزمه في الاشتراك. برّروا رأيهم بالقول ان الحرب والعلم شيئان مختلفان. طريق المحارب غير طريق العالم؛

فما الذي يحمله على ما لا طاقة به للعلماء أمثاله؟ يقينهم بأن الحرب لم تخلق «للعلماء» جعلهم يشيّعونه بنظرات ملؤها الإشفاق بعد أن فشلوا في إجباره على البقاء والتراجع. وها هم شباب القبيلة يرمقونه الآن. وهم يشاهدون علاقته اليومية بالكتب. بنظرات تعبّر عن الاستنكار أكثر مما تعكس أي تعبير آخر. مع الأيام اختفى في أعينهم الجلال الذي يكنّونه للكتب وفتر حماسهم في تقديس العلم والعلماء. ويبدو أن الحرب عندما تطول تغيّر النفوس وتدفع الناس الى التأفف والاشمئزاز والنفور ليس من بعضهم فقط ولكن من أنفسهم أيضاً.

مع الأيام سمحوا لأنفسهم بأن يتكلموا أيضاً. قالوا: «لا يليق بالعلماء أن يتظاهروا بالقتال. يجيئون كي يستعرضوا علومهم ويخفوا رؤوسهم في الكتب كما يخفي النعام رأسه في الرملة. إنهم عبء على كاهل المقاتلين». وكانوا يأتون على ذكره وعندما تجيء سيرة مهمدو يشبعونه اغتياباً بلغة لا تخلو من التشفي. حرصوا في البداية على التهامس بآرائهم وثرثرتهم ومع الوقت أعلنوا استفزازاتهم بالصوت المسموع. في لهجتهم ارتفعت نغمة جريئة لم يعهدها في مخاطباتهم من قبل: هل هي الوقاحة؟ أم مجرد خشونة؟

السبب في الحرب. ولكن ألا تساعد الحرب في الكشف عن معدن البشر الأصلي؟ أليست هذه الرذائل جزءاً كامناً في طبيعة الناس يحاولون أن يخفوها في الظروف العادية؟

انتهى من القراءة وعلّم الصفحة المقروءة بغصن شجرة برية ودسّ الكتاب السمين في الجراب.

ارتفعت الشمس أشباراً عن خط الأفق. الحر المبكر يبشّر باللهب المقبل مع اقتراب انتصاف النهار.

دبّت الحركة في معسكرهم الصغير. رأى القادة تشتيت المجاهدين الى فرق ومجموعات تنتشر بين أشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك على أن تحتمي المجموعات الأخرى خلف التلال والمرتفعات الرملية، ولجأوا إلى التخاطب والتنسيق فيما بينهم بواسطة الرسل والمبعوثين وفرسان يمتطون صهوات جياد.

انشغل فريقهم في إعداد الأمتعة استعداداً للانتقال إلى موقع جديد نحو الخطوط الأمامية. انهمك أحد الملثمين يسرج جمله ويخاطب زميله بقصة ذات

معنى تعمد أن يحكيها بصوت عال حتى يسمعها لغوما:

ـ يحكى أن فقيهاً ماكراً اتخذ من التعلل بقراءة القرآن والاختفاء وراء الكتب ذريعة لتبرير تقاعسه كلما نشبت معركة أيام الحروب القبلية. ويقال ان جماعته أبيدوا عن آخرهم، فقبض عليه رجال القبيلة المعادية حيّاً وهو يدس رأسه في القرآن متوقعاً أن يشفع له كتاب الله ويعفيه من القصاص. ولسوء حظه فإن القبيلة المعادية كانت مجوسية وحاقدة على دين المسلمين (من تلك القبائل الزنجية التي تعيش وراء النهر) فأخضعت الفقيه الخبيث لعذاب أليم في محاولة لانتزاع اعتراف يخص المواقع التي تخبىء فيها القبيلة الصحراوية كنوزها، ولما كان الفقيه الأبله يجهل مواقع الكنوز فقد تعرض للهلاك: قطعت القبيلة المجوسية أطرافه. وفي رواية أخرى أنهم أوقدوا ناراً وتعمدوا أن يشووا كل طرف مستقطع من جسمه ويأكلوه إمعاناً في التشفي! هيء ـ هيء ـ هيء.

قال الرجل الثاني وهو يرمق غوما من طرف خفي:

ـ الصباح رباح. هذه حكايات لا تليق بهذا الوقت.

ولكنه لم يلبث أن أعقب تعليقه بضحكة مقتضبة.

أقبل مهمدو بوجه يعلوه الغبار. همس دون أن يلقي بتحية الصباح:

ـ لا تعرهم اهتماماً. علاقة الدهماء بالكتب وبأصحاب الكتب علاقة عداء دائماً.

عاد الملثم الأول يقول بعناد:

ـ فقيه آخر صاحب قبيلتنا في الزمان القديم في غزوة إلى الأدغال. مشى في ذيل القافلة ولم يفارق الخطوط الخلفية طوال الرحلة مدعياً التزام رحاب الله متذرعاً بقراءة الآيات وشد أزر المقاتلين بالقرآن. هكذا كان يردد كلما دعوه للاشتراك في القتال: «سوف أشد أزركم بالقرآن» وبالطبع نجا من الموت. ولكن هل تعرف ماذا حدث له بعدها؟

صمت ورفع رأسه عن جراب الصوف وخاطب زميله وهو يحدج غوما:

ـ الخوف لم ينقذه من المكتوب. اختبأ ثعبان سام في جرابه، ففتحه عند بلوغ

أطراف الصحراء في طريق العودة فلدغه الثعبان ومات على الفور.

تبادل نظرة مع زميله وتمتم مختتماً قصته:

ـ هاك الدليل على صدق ما يقال: الموت أقرب لنا من حبل الوريد!

لم ينظر غوما في عيني مهمدو. ولم يشأ مهمدو أن يناقش قصة الرجل الاستفزازية حتى لا يسبب لغوما المزيد من الإحراج.. ولكن غوما كان قد سمع هذه القصة من قبل. الرجل تعمّد أن يحرّفها الآن ويدخل عليها تعديلاً يخدم غرضه الخبيث. بطل القصة لم يكن فقيهاً. خطر له أن يخبر مهمدو بذلك ولكنه تراجع عن الفكرة الطفولية.

في الشمال سُمع قصف مدفعي. أعقبه تصاعد ذيول الغبار في الأفق البعيد.

بدأت المناوشات مبكراً.

اقتضت الخطة أن يتحركوا غرباً ليدعموا المجموعة المرابطة على خطوط التماس بين الصحرائين الرملية والطينية. على المرتفعات الجبلية يمكن مشاهدة قوات العدو بالعين المجردة. أجبرتهم آلياتهم الثقيلة على البقاء في المرتفعات الجبلية والاحتماء بالصحراء الصلبة. في الأيام الماضية حاولوا مراراً التوغل في الرملة ولكن الأرض الرخوة تحالفت مع المجاهدين فتكبدوا خسائر أليمة وتراجعوا الى مشارف بحر زلّاف المتنقل. قبل أن ينضموا إلى رفاقهم وقعوا في كمين.

في الوادي العميق الذي تحيط به جبال رملية شاهقة أطل عليهم رجال الهجانة(٥) الذين جنّدهم العدو في الأسابيع الأخيرة للاستعانة بهم في حرب الصحراء، وحاصروهم في قاع الوادي الكبير وبدأوا يطلقون عليهم من بنادقهم الطليانية الحديثة الصنع.

المفاجأة أربكتهم في البداية وأوقعتهم في الفوضى. لم يستمر ذلك طويلاً. سيطروا على الموقف وانتشروا يحتمون خلف اشجار السرو والأثل وجذوع النخيل والروابي الرملية المتناثرة في قعر الوادي. استمر الرصاص ينهمر من قمم المرتفعات الرملية المطلة على السهل.

لاحظ غوما وجود بعض الأفراد من قبائل الزنوج بين مجندي الهجانة فصدّق

ما يتردد في الآونة الأخيرة من قيام الطليان باستجلاب قوافل من جنود الأحباش للاستعانة بهم في الاستيلاء على الصحراء. قيل ان الروم الخبثاء قالوا لهم لشحنهم بالحماس: «هذه فرصتكم لتأخذوا بثأركم من سكان الصحراء الذين أذلّوكم في الماضي وباعوكم للتجار البيض القادمين من وراء البحار!» فانطلت الحيلة على الزنوج المساكين واحتكموا الى حرابهم وتسابقوا لمقاتلة الليبيين والانتقام من مستعبديهم.

اعتصم بربوة صغيرة في قلب الوادي كوّنها تراكم الرمال على جذع أثلة ميتة. التحق به أسوف زاحفاً على ركبتيه ويديه معاً، فأثارت حركة المحارب الخبير إعجاب الأب. بعد قليل بدأ الرصاص ينثر في وجهيهما التراب فعرف غوما أن أحد القناصة المنطرحين فوق قمة الجبل الرملي قد اكتشف موقعهما فطفق يسدد نحوهما بعناد مستهدفاً رأسيهما. صوّب غوما نحو مصدر الرصاص العنيد وضغط على الزناد مرتين. لم تنطلق الرصاصة في المرة الأولى فعاود المحاولة. انطلقت الرصاصة ولكن الموقع لم يخرس. بل إن الرصاصة استفزت القناصة فسقطت أمام وجهيهما ثلاث رصاصات في وقت واحد. اثار سقوطها الغبار فوق رأسيهما حتى غطى الشاب عينيه بيديه. لحظات وانقشعت الغيمة واتضحت الرؤية. ارتفعت الشمس. تصبب العرق على الجباه وشقت خيوطه الحارّة الأجساد المنهكة. بحث عن مهمدو فرآه ينحني جاثياً على ركبتيه فوق جسد رفيق أصيب بجروح. تبين أن الجريح هو نفس الرجل الملثم الذي صب على رأسه سيل الاستفزاز ولفق القصص عن جبن العلماء في الصباح. استمر تبادل إطلاق النار. لم يكن في وضع يسمح له بالسخاء في إطلاق النار. ثروته من الرصاص محدودة. حاول ألاّ يضيّع الاحتياطي المتواضع وينفق الطلقات النفيسة عبثاً. طلقة طائشة قد تساوي العمر. التفت نحو الابن وتكلم ناصحاً:

- إحرص ألاّ تضغط على الزناد سدى. حاول أن تتأكد من إصابة الهدف أولاً. ليس لدينا رصاص نضيعه في الفضاء!

تولّى الرفاق حماية ظهورهم من الجانب الآخر. جاهدوا في صد الهجوم من طرف الكماشة الآخر. انتشر الهجانة على المرتفع الرملي على طول الناحية الشرقية أيضاً.

لاحظ التراب يتناثر باستمرار قدام عيني أسوف بالضبط فعرف أن القناص

الماهر قد استغل غشامة الفتى وحداثة خبرته بالحرب فركز عليه عازماً أن يصيبه في رأسه. انتزع أسوف من معصمه وألقى به إلى الناحية الأخرى من المرتفع. حذّره قائلاً:

- عليك أن تنتبه. يجب أن تغيّر من وضعك باستمرار حتى تفوّت الفرصة على القناص الذي يستهدف رأسك!

ازداد اقتراب المدافع مع انتصاف النهار.

استمر التراشق دون أن يسفر عن تغيير في مواقع الطرفين.

حاول غوما أن يزحف الى الأمام ليغير الموقع ويحتل شجرة نخيل تكفل لهما أغصانها الكثيفة وقامتها الواطئة مخبأ آمناً فانهمر الرصاص كثيفاً فأدرك أن العدو الشرس لجأ إلى استعمال الرشاش. عاد يقبع بجوار أسوف متوثباً ينتظر أن تحين الفرصة كي يعيد المحاولة.

انتصف النهار.

هدير المدافع يقترب.

اشتكى أسوف من العطش فتألم غوما وداس على قلبه ولم يعره اهتماماً. بدأت المدافع تقتحم الوادي. سقطت شظية شرسة على يمين غوما بمسافة ثلاثة أمتار ونصف فاهتزت الأرض وارتفع ذيل الغبار. سمع فارساً شجاعاً من جماعتهم يجلس على جواد ضامر وينادي بأعلى صوته: «الطليان يتقدمون. يفرشون الأرض ببسط من جريد النخيل ويصنعون الطرق لآلاتهم الشيطانية. اصبروا يا جماعة الخير! قريباً يأتي الفرج!».

ولكن عليهم أن يصبروا طويلاً حتى يأتي الفرج.

نظر الولد نحوه بعينين غائبتين يكسو مقلتيهما البياض. همس بخجل:

- لم أعد أستطيع. العطش!

داس على قلبه مرة أخرى وهو يقول:

- الصبر! تذرع بالصبر. كيف تنتصر على العدو إذا لم تنتصر على العطش؟

رقد الشاب على بطنه وصوّب بارتباك فلاحقه الأب بالتحذير:

- لا تطلق إذا لم تتأكد من إصابة الهدف. ليس لدينا رصاص نضيعه في الهواء!

استقبل الابن شروطه التعجيزية بنظرة امتزج فيها اليأس بالألم بالسخرية المريرة.

هدير المدافع يهز الأرض.

اتسع مدى القصف وأصبحت القنابل الآن تسقط على سفح المرتفع الذي يشرف على الوادي من الشرق فأدرك غوما أن الجحافل تقع الآن على مسافة قريبة من الجهة المقابلة للمرتفع. سوف يقتحمون الوادي قريباً.

عاد الفارس الشجاع يطوف على المواقع ورصاصات القناصة المرابطين على القمة تلاحقه. صاح: «رفاق الجبهة الغربية فتحوا ثغرة للانسحاب. تراجعوا عبر الوادي إلى الجنوب. احرصوا على أن تحموا بعضكم عند الانسحاب. القادة يأمرون بأن يتم التراجع على مراحل!».

مادت الأرض وتناثرت حفنة من الشظايا. سمع أكثر من صوت خلفه ينطلق بأنين أليم فعرف أن أكثر من مقاتل قد أصيب.

في اللحظة التالية استطاع أن يصيب القناص العنيد الذي ظل يتصيّد رأس أسوف طوال اليوم. انتفض برأسه كالطائر ثم همد ورأى رأسه يرقد على الرمل في سكون. ولكن هذا لم يحم ربوته من النار. واصل رفاق القناص الصريع يمطرونه تارة بإطلاقات البنادق المتقطعة وتارة أخرى بنيران الرشاشات المتواصلة.

صاح مهمدو خلفه:

- إنهم يأمرون بالانسحاب. حاول أن تتراجع زحفاً وسأحمي ظهريكما.

التفت فلم يبصر وجهه كما لم يعرف أين يقبع فهتف خلفه كي يسمعه أقرب موقع:

- انسحبوا أنتم وسأتولى حماية ظهوركم. النخلة التالية تبعد عنكم خطوات

فقط.

رأى أحد الفرسان يجرجر على الرمال الرامضة جريحاً ملتحياً يرقد على جرد رمادي مشدود الى ذيل الجواد بحبل من ليف النخيل. كان الجواد يعرج وينثر الزبد حوله على الأرض.

استحلب ريقه بصعوبة كي يبلل شفتيه اليابستين المتشققتين. تحسس غالون الماء الصغير المعلق على كتفه الأيمن تحت الكم الواسع. الغالون مغطى بقطعة من قماش الخيش لحفظ البرودة. الاقتصاد في الماء هو أول الشروط. كان الغالون الصغير ممتلئاً الى نصفه فقط.

ازداد عنف القصف فتصاعدت سحب الغبار والدخان فوق الوادي. حجبت الرؤية فانتهز بعض المقاتلين الفرصة لتنفيذ جزء من خطة الانسحاب الشامل نحو الجنوب عبر الوادي المتعرج الطويل.

أبصر مجموعة من المنسحبين تتراكض برشاقة بين أشجار النخيل وتختفي عند المنعرج حيث ينحرف الوادي بحدّة الى اليسار نحو الجنوب الشرقي.

عاد أسوف يشتكي من العطش:

ـ لم أعد أستطيع. إني لا أرى بوضوح.

نهره بقسوة:

ـ ما معنى «لم أعد أستطيع؟» هذه لغة النساء.

ـ ولكن الظلام يحجب الرؤية.

ـ هذا وهم. أنت تتخيل.

طنّت شظية عابرة فوق رأسه وانهمرت دفعة جديدة من الطلقات على الجزء العلوي من الربوة أمام عينيه. تدحرج الى اليمين بضعة أشبار وسدد طويلاً قبل أن يضغط على الزناد ويفقد الرصاصة النفيسة. طارت هباء. الجسم ينز بالعرق ويفقد الاحتياطي من السوائل فينشر العطش الغيم أمام العيون ويحجب رؤية الأهداف. هو هدّه العطش فما بالك بالصبي اليافع. ولكنه استمرّ يحتفظ بالقطرات في الغالون

لآخر لحظة سوداء. لا يستطيع أن يتنبأ بمفاجآت المواجهة.

الحر امتص المزيد من الرطوبة في جسميهما فرأى غوما أشباح جنود العدو وهم يتنقلون على طول المرتفع مثل خيالات هلامية. لا يستطيع أن يصيب أجساماً تنشطر إلى اثنين وتزدوج كالأشباح.

فقد الولد صوابه وقال بلهجة اعتبرها غوما في تلك اللحظة تطاولاً ووقاحة:

ـ رأيتك في الصباح تدس غالون الماء تحت كمّك!

التفت نحوه فأضاف الشاب بإلحاح وعيناه كساهما البياض:

ـ أعطني جرعة واحدة! جرعة واحدة فقط!

داس غوما على قلبه حتى انبثق منه الدم وقال محاولاً ألا يفقد عقله:

ـ لا يليق بالأبناء أن يخاطبوا الآباء بهذه اللغة. هل جننت؟

ـ أريد قطرة! قطرة بدل الجرعة!

حاول أن يبلع ريقه ففشل. أضاف بصعوبة وهو يستجمع كل قواه:

ـ .. كي أبلل ريقي!

ـ هذا جنون. أين الرجولة؟ هل فقدت الرجولة؟ هذه لغة النساء!

حاول غوما أن يبلّ ريقه. فشل أيضاً. تمدد على ظهره ونظر في قرص الشمس الملتهب وهو يضع البندقية على صدره ويلتقط أنفاسه ويسترخي. بدأت العينان تعجزان عن الإحساس بحدّة أشعة الشمس. ظلمة العطش تحجب حتى الشمس النارية.

فجأة وجد أسوف يهجم عليه.

قفز إلى جواره ومد يديه تحت كمه يريد أن يستولي على الغالون. كان الجنون في عينيه.

أبعده بحركة عنيفة وصاح:

ـ هل جننت؟

ولكن الشاب عاد وأمسك بالغالون بقوة وحشية. انقطع الخيط الذي يثبت الغالون الى منكبه واستولى الولد على الغنيمة. قفز غوما وانتزع منه الغالون ودفعه على الأرض كي لا يتمكن منهما العدو المتربص. انكفأ أسوف على ظهره ولكنه نهض وهجم عليه مرة أخرى. تشبّث بالغالون. مضت لحظة وهما يتنازعان واقفين بطول القامة. ثم.. أصيب الفتى.

تلقى رصاصة في جبينه. توقف عن المقاومة فجأة وترك الغالون وهو يحدق في قرص الشمس بعينيه الغائبتين اللتين يكسوهما بياض الجنون وفمه مفتوح. لم يدرك غوم ما حدث إلا بعد أن انهار أسوف وسقط على الأرض منكفئاً على وجهه. لحظتها أبصر خيطاً رفيعاً من الدم يسيل على الأرض فتمتصه الرمال العطشى.

احترق قلبه وهو يضطجع بجواره. رفع رأسه فرأى ابتسامة ساخرة على شفتيه اللتين يعلوهما الرمل والغبار. أسبل جفنيه ومدّده على الأرض ودفن قلبه المحترق بجواره في الرمل الرامض وتناول بندقيته التي سقطت عندما تماسكا في العراك.

سقطت قنبلة ازاحت رأس الربوة من الوجود.

الآن رأى الآلات الشيطانية وهي تزحف نحوه كوحش أسطوري. الآن رأى كل شيء بوضوح.

دفع بجثة أسوف أمامه وغطى بها رأس الربوة الزائلة. صنع من أسوف سداً يحميه من الرصاص ووضع بندقيته فوق صرته وصوّب.

ما زال يطلق النار عندما قبضوا عليه.

أكثر ما أدهشه أن احتياطي الرصاص لم ينفد ومستوى الماء في الغالون لم ينزل قطرة واحدة!

(٦)

تساءل الجنرال بالبو وهو يلوّح بثعبانه المدهش في الهواء:

- هل كنت تطمع في منع تقدّم دباباتنا وسياراتنا المصفحة؟

- لا!

- هل كنت تتوقع أن تصمد في وجه مدافعنا بطلقات بندقيتك البائسة؟

- لا!

- هل كنت تنتظر أن تقتل جندياً واحداً ببندقيتك العثمانية البدائية؟

أجاب غوما بعد تردد:

- ولكني قتلت جندياً أو اثنين...

ابتسم الجنرال بتهكم وعاد يقول ملوّحاً بالعصا التي يقف على رأسها الثعبان:

- قتل جندي لا يعني إحراز النصر. قل لي بشرف: هل كنت تنتظر نصراً؟

نكّس غوما رأسه وقال باستسلام:

- لا.

هنا توقف الطلياني واقترب بوجهه نحوه شاهراً الثعبان المقزز الذي يجلس في نهاية عصاته السحرية وقال جاحظ العينين:

- لماذا تحاربوننا إذن؟

صرّ على أسنانه وأضاف:

- لم أسمع ولم أقرأ في تاريخ الحروب أن احتكم فريق الى السلاح دون أن يكون له أمل في النصر. فلماذا ترفعون السلاح في وجوهنا ما دمتم لا تطمعون في النصر؟

قال غوما بهدوء وهو يسحب لثامه على طرف أنفه:

ـ هذا واجبنا. كنا نؤدي واجبنا فقط.

ـ هذا غباء. هذه ليست بطولة. لا يمشي في الركب الذي يتحرك نحو العدم والموت إلآ البلهاء أمثالكم!

صمت غوما فردد الجنرال وهو يتمشى في الغرفة المستطيلة التي يتناثر فيها أثاث أنيق:

ـ تقول واجبنا دون أن يرف لك جفن. تصنع من جسد ولدك متراساً لصدّ رصاصنا وتفاخر بتأدية الواجب. هذه وحشية! أنت وحش!

لم يعلّق غوما فساد الصمت.

استمرّ الطلياني المهيب يتمشى في الغرفة المستطيلة. توقف وتساءل في لهجة أخرى مختلفة:

ـ ألا تعتقد أنك تبالغ في القسوة؟ ألم يرقّ قلبك؟

وجد غوما نفسه يردد:

ـ لقد دست على قلبي.

ثم أضاف مستدركاً:

ـ أقصد أن للرجولة شروطاً قاسية. ولا يليق بالرجل النبيل أن يرضع الماء من القربة كالمرأة أثناء الحرب!

سمع الجنرال وهو يجلجل بالضحك حتى ردّدت الجدران صدى ضحكته.

صمت. صمتٌ يخرقه ارتطام حذائه الأسود الضخم على أرضية الرخام اللمّاع.

قال متفكراً:

ـ بدو بلهاء! تدفعون بأنفسكم للتهلكة وتتوهمون أنكم تؤدون الواجب. الواجب في الدفاع عن ماذا؟ عن صحراء عارية لا أول لها ولا آخر. هيء ـ هيء ـ هيء...

ـ الصحراء هي الحرية!

ـ هيء ـ هيء ـ هيء ... الصحراء هي الحرية!

ـ لا نستطيع أن نحتمل الحياة بدون صحراء!

ـ هيء ـ هيء ـ هيء ... قالوا لي أنك شجاع ولكنهم لم يقولوا لي أنك حكيم أيضاً! يا لكم من مكابرين بلهاء!

صمت غوما فاقترح الجنرال وهو يلوّح أمام وجهه بثعبانه اللزج:

ـ لديَّ اقتراح: لماذا لا تتركوا لنا الشريط الساحلي وتذهبوا لتمارسوا الحرية في الصحراء؟

أعقب ذلك بضحكة ساخرة.

انكمش غوما في كرسيه. قال:

ـ نحن لم نعبر البحر ونأتي الى دياركم.

ـ ولكنكم حاربتمونا في الشواطىء.

ـ هذا واجبنا.

ـ ها قد عدنا إلى خرافة الواجب.

ـ لا نستطيع أن نطمئن الى وجودكم خلف ظهورنا. لا بد أن نترك خلف ظهورنا صحراء من الماء أو صحراء من الرمل. الحرية لا تطيب إلا إذا توفرَ هذا الشرط!

ـ أنت فيلسوف أيضاً. أين تعلمت كل هذا؟ على أيدي الصوفيين الدراويش؟

ضحك بأعلى صوته كاشفاً عن أسنان حادة اسودت عند اللثة.

«اسودّت بسبب التدخين» قال غوما في نفسه.

جلس على أريكة بجواره وقال وهو يضع رجلاً على رجل:

ـ إننا نعرف عنك كل شيء كما ترى. حتى هيامك بحفلات الدراويش وتجمعات ما تصرون على تسميته في لغتكم «الصوفيين».

مضت ثلاثة أشهر قبل أن يجيئوا به مقيداً بالسلاسل الى الحاكم العسكري بطرابلس. قضى الأسابيع الأولى مع الأسرى في سجون الواحات. ثم نقلوه الى داموس مظلم في جبل غريان ومكثوا به هناك قرابة الاسبوعين. شفي جرحه في الكتف بسرعة لم يتوقعها. ثم جاءوا واقتادوه الى العاصمة في سيارة مكشوفة تحت ستار الظلمة في ليلة مشبعة بالرطوبة.

تنفس الهواء برائحة السمك فعرف أن البحر قريب.

على صدر الطلياني المهيب لاحظ النياشين لأول مرة. سرق الثعبان الذي يعتلي عصاته كل اهتمامه فلم يلاحظ صدر الجنرال المتوج بالأوسمة والنجوم.

استمر يحاوره:

ـ رأيت أن محاورة محاربي البدو أمر مفيد بالنسبة لقائد عسكري مثلي خصوصاً أولئك الملثمين المنتشرين في الصحراء كالأشباح، ولكني، بكل أسف، أكتشفت أن أكثركم مرونة ينافس أكبر بغل في العناد وصلابة الرأس!

طرأ تغير على ملامحه وهو يضيف:

ـ غراسياني معه حق. أهل هذه البلاد لا يعرفون غير لغة البارود ولا ينفع معهم سوى القمع.

ثم مال نحوه قائلاً:

ـ هل تعلم أن موسوليني يفكر جدياً في إعادته إلى البلاد؟ الدوتشي اقتنع أخيراً أن السلام لن يتحقق على ضفاف الشاطىء الرابع إلا إذا استعان بالسفاحين المتطرفين أمثال الجنرال غراسياني. أما البلهاء أمثالي فنهايتهم قريبة.

صمت وقال بنغمة مرارة:

ـ كنت أراهن على الديمقراطية معتقداً أن المرونة مع السكان الأصليين سوف تحقق السلم. ولكن تطرفكم هزمني وبدد أحلامي في إحلال السلام.

نهض واقفاً وأعلن وهو يستقيم في وقفته كأنه ينوي أن يؤدي التحية العسكرية أو يلقي خطاباً هاماً:

ـ الآن بوسعكم أن تحلّوا نزاعكم مع غراسياني!

وعندما انتهت المقابلة وهمّ بالخروج استوقفه عند الباب وأومأ بالحرس لينتظر.

اقترب منه وقال بملامح جامدة:

ـ قصة الغالون قاسية. ومع ذلك لا أخفي إعجابي. إننا ننظر بالتقدير الى الأعداء الذين يستحقون التقدير كما ترى.

وهدّده بالثعبان الذي يتلوى في يده اليمنى. ثم انكشفت أسنانه المسودّة في الجزء السفلي، عن ابتسامة غامضة.

(٧)

قال له ضابط المخفر الطلياني الأعرج وهو يطلق سراحه:

ـ نحن نحترم أعداءنا الشجعان. ولكننا لا نتسامح معهم أبداً إذا سوّلت لهم نفسهم العودة إلى رفع السلاح في وجوهنا. هل تفهم ما أعني؟

غوما لم يجب.

عاد على الفور الى الجنوب طامعاً في أن يلتحق بالرفاق ويعاود رفع السلاح في وجوه الغزاة ولكنه فوجىء بأن كل شيء قد انتهى.

التفاصيل سردها عليه مهمدو الذي عاد الى الواحة واعتصم بالمغارة.

الملخّص يقول انهم وقعوا بعد تلك الموقعة في كماشة أخرى فحوصروا أياماً حتى اضطر مهمدو أن يحتكم إلى مهنته ويطلب النجدة من الجن. ركن إلى ربوة وطفق يقرأ التعاويذ ويردد الأوراد ويقطع أوصال آية الكرسي مخاطباً المردة حتى مطلع الفجر.. لبّى أعوانه النداء وتنادوا وجمعوا شملهم في الصحارى المجاورة وهبوا إلى نجدته. قال انهم جاءوا يركبون العجاج الكثيف وغطوهم بكساء من غبار وحجبوهم عن أعين العدو الذي يحاصرهم. فأمسك المجاهدون بأيدي بعضهم وانسلّوا في وضح النهار.

ولولا أعوان مهمدو لما نجا منهم أحد يومها فعرفوا كيف يعطون للعراف ما يستحق من التقدير وهم الذين أشبعوه اغتياباً.

هاموا على وجوههم في الصحراء وتراجعوا الى الواحات الجنوبية البعيدة. تشتت شملهم وصدرت الأوامر من الزعماء والقادة معلنة عدم جدوى الإستمرار في القتال ناصحة بإلقاء السلاح. هكذا قال مهمدو وهو يستضيفه بكأس شاي أخضر متقن الصنع لم يذق غوما لمثله طعماً منذ شهور. لم يمدح غوما نوع الشاي كما لم يثن على جهود العرّاف في تحضيره ولكن مهمدو رأى الامتنان في عيني صديقه.

زحفت أمسية صيفية منعشة.

خبت شعلة النار في الموقد فعاد مهمدو يغذيها بالحطب. دخل المغارة وجاء بطبق من التمر. رطب موسم هذا العام.

قال وهو ينشغل في كسر أعواد الحطب ويزيح زمالته المضحكة عن وجهه النحيف:

ـ لو رأيت وجه السويعدي ونحن نتخطى الكمين أثناء هبوب العاصفة لمتّ من الضحك. كان ممصوصاً مثل ليمونة معصورة. المسكين كان خائفاً.

لم يعلق غوما فأكد اتهامه:

ـ كان يمسك بيدي أثناء العبور. كانت يده ترتعش في يدي وتعرق.

تصاعدت ألسنة النار فحجبت رؤية الواحة الهاجعة. ألسنة النار اعتدت على سحر المساء.

أطلق ضحكة عابرة وأضاف وهو يقتعد الأرض عازماً أن يجدد تحضير الشاي:

ـ بعد تجاوزنا لقواتهم قال انه مدين لي بحياته. الكثيرون قالوا لي ذلك.

رأى غوما، في ضوء اللهب، سحابة كئيبة تزحف على وجهه وهو يتهيأ لأن يعلن:

ـ ولكن الكثيرين، مع ذلك، لم تكتب لهم النجاة.

رمقه غوما بنظرة مستفهمة فحكى القصة بعد صمت قصير:

ـ احتلوا ونزريك وأقاموا فيها معسكراً للاعتقال. أعطوا الحرية للهجانة ليستبيحوا الصحراء ويطاردوا المجاهدين الذين هاموا على وجوههم وتاهوا بحثاً عن الماء والمأوى.

هلك البعض عطشاً وجوعاً وقبض رجال الهجانة الزنوج على أغلب الفارين وأتوا بهم الى المعتقلات. هل تدري ماذا فعل الطليان هناك، في معسكر ونزريك؟

طرد ذبابة كبيرة ملحاحة واستطرد:

ـ اختاروا ثلاثة أو أربعة من كل واحة وقطعوا رؤوسهم ورفعوها على حراب البنادق وفوق الدبابات ودخلوا بها الواحات كي يرهبوا الأهالي ويكسروا روح المقاومة.

تمتم غوما بلا وعي:

ـ هذا فظيع!

ـ تعمدوا أن يقطعوا الرؤوس قبل الوصول الى الواحات بقليل حتى يحافظوا عليها طازجة ويتفرج الأهالي على الدماء.

ـ هذا فظيع.

ـ .. دخلوا آدرار مع العشية. ورؤوس ثلاثة من أبنائنا تتوج مقدمة الدبابات والدماء تقطر من الجماجم المعلقة في الحراب.

أغارت الذبابة مرة أخرى وهي تطارد الضوء فأبعدها عن أدوات الشاي:

ـ اصطف الأهالي في طابور طويل وراقبوا المشهد بخشوع وسارعوا الى إبعاد النساء والأطفال ولكن أم أحد هؤلاء الشهداء اقتحمت الطابور ووقفت أمام الدبابة حيث يرتفع رأس ابنها البكر وحجبت فمها بيدها وأطلقت زغرودة طويلة.

قضى على الذبابة العنيدة بضربة من المروحة وأعلن دون أن ينظر نحو غوما:

ـ كانوا يتوقعون أن يغمى على الأم فاستقبلت رأس ابنها الشهيد بزغاريد

النصر.

استعاد غوما صورة الرؤوس المرشوقة على حراب البنادق فشعر بالغثيان. نهض وغاب خلف المغارة فسمعه مهمدو وهو يجاهد كي يكتم صوته وهو يتقيأ. عاد بعد قليل وتربع في مكانه ولاذ بالصمت.

مهمدو لم يرحمه. أضاف:

- في اليوم التالي استدعوا عبد الله الجاروف وولوه منصب المشيخة وبعد ثلاثة أيام قدّم لهم قائمة بالمجاهدين الباقين على قيد الحياة الذين اشتركوا في الحرب..

هيمن صمت.

هبت نسمة شمالية منعشة.

- .. اعتقلونا واستجوبونا وأطلقوا سراحنا قائلين ان الدوتشي لم يخصص لهم ميزانية لإطعامنا... الآن علينا أن نزور مركزهم كل يوم ونقيّد أسماءنا في دفاتر أعدوها لنا خصيصاً كي نثبت وجودنا في الواحة... سوف يطلبون منك أن تفعل ذلك أيضاً.

في الغابة الشرقية انطلقت أغاني الجنادب الليلية.

انتهت حفلة الشاي الأخضر بعد منتصف الليل.

جاء له العراف بالحصير والأغطية واستلقى هو في مدخل المغارة.

غوما لم ينم.

ظل جالساً يصغي للصمت وغناء الجنادب وطنين البعوض حتى طلع الفجر.

....

في الصباح انطلق نحو الأفق الجنوبي حيث تراقص السراب على العراء مبكراً.

لم يمر في طريقه على المعسكر كي يسجل اسمه في دفتر الغزاة.

3 ـ الطوفان

(١)

انتهت مهمة شركة الحفر وتهيأت لمغادرة الواحة لو لم تحدث تطورات عرقلتها عن الرحيل. هذه التطورات لم تؤجل رحيل الشركة فقط ولكنها بعثت النشاط في آدرار وحركت الركود الذي خيّم على الواحة في الأسابيع الأخيرة فوجدها الأهالي الكسالى فرصة لترويض ألسنتهم على تناقل الكلام وإشباع شهيتهم التقليدية في ترديد الشائعات.

فما أن أعدّ الغطاء واستقرت أسطوانة الأسمنت الضخمة فوق فوهة النبع حتى أمر كونسا بتشطيب ممتلكات الشركة والاستعداد للرحيل. قرر أن ينتقل بزهرته الى موقعه الجديد في الواحة القادمة. ولكن اقتحام ماريا المفاجىء لآدرار قلب خططه رأساً على عقب. ويبدو أنها فضلت أن تصنع له هذه المفاجأة «السارة» . التي لا يتقن عادة صنعها نساء غير الزوجات. بدلاً من أن تبعث له بكتب المؤلفين القدماء الذين طلبهم في رسالته عملاً بنصيحة أستاذه الحكيم في الاستفادة من هوميروس حتى في البحث عن أنقاض المدن القديمة ومنابع المياه والأنهار. فهل جاءت مدفوعة بالشوق أم اشتمّت رائحة الخطر في الأنف؟

كونسا على يقين أن للزوجة حاسة عبقرية تستخدمها في إكتشاف مغامرات الزوج السرية. وبذرة العبقرية كامنة في أي امرأة ولكنها تتفتق وتتفتح وتنمو مع معاشرة الرجل لأمد طويل. وبرغم اعتقاده أنه يعرف ماريا ولم يسبق له أن لاحظ في تصرفاتها ما ينم عن وجود مثل هذه الموهبة إلاّ أن في قيامها بهذه الزيارة المريبة. لتضبطه متلبساً بالحياة مع امرأة أخرى. يكمن الدليل على جهله بمواهبها

الحقيقية.

المفاجأة أربكته وفوّتت عليه فرصة «التخلص» من زهرة أو إخفائها في بيتها بالحي القديم فاضطر أن يستقبلها ويجمعها بضرّتها تحت سقف واحد في غرفته الخشبية بالمعسكر الواقع شمال مستعمرة الجن.

في عيني ماريا قرأ الدليل الذي يقول انها تعرف كل شيء!

جاءت بها سيارة تابعة للشركة من عاصمة الصحراء، ونزلت أدرار مع الزحف الأول لعتمة المساء.

إفترشت زهرة المناديل على الأرض وأعدت طعام العشاء، فلاحظ كونسا كيف تتبادل المرأتان النظرات. لم تفلح ماريا في تقليد ضرتها على التقرفص فوق المندار، برغم أنها جاهدت في المحاولة، فاكتفت بالجلوس راكعة على ركبتيها تسترق نظرات التأفف نحو زهرة. أما زهرة فظلت ترمقها بنظرة مختلفة: نظرة غامضة لم يستطع أن يقرأ فيها إلاّ تعبيراً خيّل له أنه الفضول. أما بقية التعابير التي تحملها تلك النظرة العميقة فكثيرة وإن ظلت، بالنسبة له، خفية.

تعمدت ماريا أن تقتصر في تناول المأكولات المعلبة وأعلنت أنها تخشى الأمراض المحلية.

إلتقط قطعة من خبز التنور وغمرها في المرق وهمّ بأن يأكلها فصاحت في وجهه وهي ترطن بلغتها في كلمات سريعة متلاحقة:

ـ ألا تخشى من الملاريا؟ ألا تخاف الإصابة بالبلهارسيا والدوزنتاريا؟ عليك أن تفكر بالأطفال. سوف تنقل العدوى إلى الأطفال.

توقفت اللقمة في حلق كونسا واندهش كيف لم يصب حتى الآن بالأمراض المحلية برغم أنه لم يتناول مضادات حيوية أو وقائية كما لم يسبق له أن طعم ضد الملاريا.

رمقته زهرة بابتسامة ساخرة، ثم انتقلت بعينيها نحو ضرتها النصرانية وقالت نظرتها أنها تفهم كل شيء. المرأة تفهم المرأة حتى لو رطنت بلغة الوطاويط، حتى لو لم ترطن بأي لغة على الإطلاق.

هكذا ترجم كونسا لنفسه نظرة زهرة في تلك اللحظة.

ساد صمت متوتر فشغل نفسه بمتابعة فراشة مزركشة تحوم حول نار الفنار الخافت.

طن البعوض أيضاً. عقّبت ماريا على الطنين:

- سأمرض بالملاريا. ما في ذلك شك!

إنهمكت تفتح علبة تنّ جلبتها معها وأضافت:

- لم أستطع أن أتصوّر كيف عشت في هذه المتاهة طوال هذه السنوات.

صمت.

ثم:

- .. وتتهيأ للتصوف وعشق الصحراء وتطلب مؤلفات هوميروس وتيت ليفي...

صمت.

ثم في لهجة سخرية:

- ... تريد أن تتمادى في العشق وتتبحر في التصوّف.. ها. ها. ها...

رمقت زهرة بنظرة عدوانية وقالت بحقد:

- .. وتعتقد أنك تستطيع أن تخدعني بترديد الأساطير عن جمال الصحراء. الواقع أني لم أطمئن إليك في يوم من الأيام.

أبعدت طبق الخبز بحركة عنيفة ولوّحت بالتحدّي أمام نظّارته بالضبط:

- .. هذه بشرى أزفها لك كي لا تنعم وتتباهى بانتصارك أمام هذه البدوية السيئة السمعة وتقول انك خدعت ماريا كابريوس!

تصاعد التوتر وتوقف كونسا عن المضغ. لاحظ أن زهرة ترمق ضرتها الآن بنظرة أخرى: نظرة وحشية!

مرت الليلة الأولى بسلام فهنأ كونسا نفسه على حكمته وقدرته على ضبط النفس وتهدئة الأجواء بين الضرّتين فقام مزهواً وتنازل لماريا عن سريره لأنها تخشى أن تنام على الأرض فتلدغها الأفاعي أو تلسعها العقارب واختار هو أن يرقد في العراء المقابل للكوخ.

في الصباح خذلته مواهبه وانفجر الموقف.

مع الأصيل تفرّج العمّال على مشهد لا يخلو من متعة. إذ يروق لمعشر الرجال دائماً أن يتمتعوا بالفرجة على عراك امرأتين، كانت المرأة النصرانية ترطن بلغتها الرقريقية العجيبة وهي تحاول أن تمزق وجه ضرتها التي استطاعت أن تمسك بها من شعرها وتبعدها عن ملامسة وجهها بمسافة طويلة، فلم تتمكن ماريا من الوصول الى وجهها وأيقنت أن يديها أقصر مما توقعت. وكلما ضاعفت جهودها في المحاولة كلما ازداد يقينها بعجزها الناجم عن قصر اليدين. في الوقت الذي يحتدم فيه الشجار بين المرأتين كان كونسا قد تورط في مواجهة أخرى استعملت فيها الأيدي والقبضات مع مساعده ماريوس. والسبب يرجع الى افتضاح أمر ماريوس واكتشاف كونسا للمكيدة التي حاكها ضدّه بمراسلة ماريا وتقديم التقرير الوافي عن زواجه من زهرة وتسليم روحه لـ«شيطان المسلمين» على حد تعبيره في رسالته الى ماريا التي عثر عليها كونسا في حقيبتها عند قيامه بتفتيشها في عتمة الفجر.

والمدهش أن أحداً من العمال الأوروبيين أو من أهل الواحة لم يتقدم لفض النزاع حتى جاء مغري وتطوع للفصل بين كونسا وزميله فتشجع مدهوب السردوك وقام يفصل بين المرأتين الشرستين اللتين ظلتا تتنابزان بألقاب قبيحة كلّ بلغتها!

أسفرت المعركتان عن خسائر جسمانية تمثلت في جروح وكدمات وخدوش. كما خسر كونسا العين اليمنى من نظارته الطبية السميكة.

هذه لم تكن خاتمة المعارك.

في الليل اندلع الشجار بين الزوجين. تلقى كونسا عضة أليمة في ذراعه الأيسر

وفقأت له ماريا عينه الزجاجية الباقية فاضطر أن يتحسس طريقه زاحفاً على الأرض، باحثاً عن مفر.

هددته قائلة: «سوف ترى أيها الوغد. سآتي لك بالأطفال وألقيهم في وجهك! وقتها سأتفرج عليك وأنت تعاني منهما! سيجيء دوري كي أتحرر وأتمتع بالحياة!».

رأى الجميع أن الفصل بين الزوجين لا يليق فأخلوا لهما المعسكر وهيأوا لهما فرصة ذهبية للحساب. أما زهرة فهجرت المعسكر وعادت إلى بيتها في الحي القديم بعد شجارها مع النصرانية في الصباح.

ردد كونسا وهو ما يزال يزحف على الأرض أمام الكوخ الخشبي باحثاً عن نظارته المكسورة:

ـ مجنونة. مجنونة!

كانت تلاحقه بالركلات وهو يزحف على الأرض والعرق يتصبب على وجهه في خيوط صغيرة.

(٢)

برغم أن وفاة باتا لم تكن متوقعة أيضاً إلا أن المفاجأة كانت في تدابير الترف وطقوس التكريم التي اتخذها الشيخ غوما لمراسم الدفن.

لم يجرؤ أحد على مواجهة الشيخ غوما بالدهشة. وحتى عندما قام آهر بالإعراب عن تعجبه من فخامة المراسم ولمح إلى أنه يرى أن المبالغة في المراسم لا تليق بامرأة مثل باتا أجابه غوما ببرود: «هذا واجبنا نحو الموتى. لا تنس أنها مطلّقة حفيدي!».

نحرت الذبائح ونصبت خيمة خاصة للمأتم، ما لبثت أن تزاحمت بالمدعوين والمعزين والمقرئين الذين انكفأوا على كتب القرآن ولحنوا الآيات الكريمة في تراتيل حزينة.

تنازل غوما وتقدم الجنازة. بل انه فعل ذلك بحماس أدهش الجميع وهو الذي

عودهم أن يتحاشى الزحمة ويتجنّب الإشتراك في المناسبات والاحتفالات والمآدب فجزم العارفون بسيرة غوما أن هذه هي المرة الأولى التي يتطوع فيها ويشيع جنازة ماشياً في المقدمة.

إستمرت التلاوات وتراتيل القرآن أسبوعاً بعد اختتام مراسم الدفن وإيداع باتا لمثواها في مقبرة شهداء العقارب، هناك، عند حذاء الجبل، حيث يرقد الكلب المجهول الذي مات بعد أن تناول عظمة مسمومة من يدي باتا نفسها.

الشيخ الجاروف تهكّم في مجالسه الخاصة: « .. طبيعي أن يحسن الشيخ لعدوه. ألم تكن المرأة تناصبه العداء؟ شيوخ الصوفيين علّموه هذا المذهب. الصوفيون يدعون إلى الإحسان للعدو. هيء . هيء . هيء..» ثم وهو يهمس في أذن الزبرجداني: «ألم أقل لكم أنه غريب الأطوار؟».

لا القاضي الزبرجداني ولا الإمام مختار الساطور شاركه الضحك. إشتركت تظاهرة ضخمة من أهالي القبيلة والواحة معاً في تشييع الجنازة لا إكباراً للمتوفية وإنما مجاملة للشيخ غوما.

الوحيد الذي لم يشترك في الجنازة ولم يحزن على باتا هو: أيس!

هذا أثار استنكار آهر وخليل وجمع من العقلاء فوبخوه على هذا السلوك. قالوا ان المتوفاة مطلّقته وذكّروه أنها كادت تصبح أماً لابنه البشع الذي يشبه الثعبان لو لم تتدخل الرحمة السماوية وتختطف روحه قبل ولادته وتنجيه من أبوة الابن المسخ.

ولكن الفتى هز كتفيه بحركة لا مبالية وانطلق يتهامس مع أقرانه ويتبادل معهم التعليقات المشبوهة.

غوما فقط تعمّد ألا يأتي على سيرة الجنازة.

ولكن كيف تحايل الموت وداهم باتا في كوخها المنيع المسيج بتعاويذ أمهر السحرة في آير؟

لم تتعرض لمرض ولم تشك من علة كما لم يحدث أن عانت من وجع أو حتى صداع رأس. فعقب خروجها من حبس السبخة وشفائها من الدمامل والقروح

الكريهة إلتزمت العزلة وركنت إلى الوحدة في كوخها الواقع في طرف المستوطنة. تحاشت الإختلاط بعد أن تحاشت نساء القبيلة ورجالها وفتيتها الإختلاط بها أو حتى إطلاق التحية في وجهها القبيح. قال الرواة: «أخيراً وجدت من يقف في وجهها. أخيراً جاء العرّاف العجوز وصرع شيطان ابنة إبليس فخلّص الدنيا من شرّها». ثم بدأت المرأة تضمر وتتضاءل وتنحف حتى استحالت إلى شبح. تخرج من الكوخ مع هبوط الظلمة وتقطع المسافة بين المستوطنة والغابة لتأتي بالبرسيم لأغنامها أثناء الليل. تجلب الماء والحطب وتأوي إلى كوخها حتى مساء اليوم التالي. قال الذين رأوها أثناء هذه الجولات الليلية أن وجهها كساه الشحوب والامتقاع، وجنتاها غارتا حتى برزت العظمتان تاركتين تجويفاً عميقاً في كلا الخدين. وأكثر ما أثار هؤلاء هو هذه الفجيعة التي شاهدوها تقفز من مقلتيها. وانتهوا إلى أن هذا الانسان ليس باتا التي عرفوها. إنه خيال إنسان آخر لم يسبق لهم أن عرفوه.

في الأسابيع الأخيرة اعتصمت بالكوخ وكفّت عن الخروج حتى في الليل. مضت أيام أخرى قبل أن يتحلل الجسد وتفوح رائحتها في الأكواخ المجاورة.

إقتحموا الكوخ فوجدوا هيكلاً عظمياً حقيقياً يرقد باستسلام على الكليم المزركش الأحمر. كانت تصالب يديها على صدرها وترفع نظرة إلى أعلى (كأنها توجهها إلى السماء البعيدة) يمتزج فيها تعبير الدهشة بالتوسل. أما الديدان فكانت تزحف وتخترق البقايا البائسة من اللحم اللصيق بالعظام النحيلة.

مهمدو الوحيد الذي اكتشف السرّ.

زاره غوما بعد أيام من دفن باتا فقال له العراف الذي لم يعزيه ولم يحضر مراسم الدفن أيضاً:

ـ حدثوني كثيراً عن المراسم التي شيعت بها جثمان الشيطان الرجيم.

حاول أن يهرب ببصره ولكن مهمدو حاصره بنظرة من عينه التي يبدو أنها تنظر في الفراغ، فقرر أن يحتمي بمدنه العجيبة التي شرع يضع مخططها على الأرض.

فاجأه العراف بالسؤال:

ـ هل تحبها؟

رفع نظره نحو صديقه فقرأ في عينيه أن لا مفر من المواجهة ولا فائدة من التهرب.

هز رأسه بالإيجاب.

عاد العجوز:

ـ كنت تحبها طوال هذه السنوات، أليس كذلك؟

تبادلا نظرة أخرى قبل أن يستسلم غوما ويعترف إيجاباً بهزة من رأسه.

تمتم مهمدو:

ـ أحسست. طوال الوقت كنت أشك.

تمنى غوما لحظتها أن يرحمه ويعفيه فقرر الهجرة. جاءه جنّي على جناح الريح ودعاه الى رحلة طويلة إلى تلك البلاد الأسطورية التي لم يرها أحد ولم يسمع بها أحد غيره. تلك البلدان المجهولة التي حلم بها ووضع لها حجر الأساس على الأرض.

(٢)

ـ لا خير في مَنْ خان دينه وبدّله بدين آخر.

ألقتها ماريا في وجهه وغادرت الواحة مهددة بأنها سوف تأتي له بالأطفال وترميهم في وجهه.

وروى مدهوب السردوك أنه سمع الرومية وهي تنازع زوجها في عدم أحقيته في أن يسلم نفسه لمقص أئمة المسلمين كي يفعلوا به ما فعلوا. وقالت ان عملاً كهذا يخصّها أيضاً وكان يجب عليه كزوج أن يناقش الأمر ويستشيرها قبل أن ينفرد بالقرار وينفذ أمراً يتعلق بالطرفين.

أكد هذا الحوار عدد من العمال الرقريق. كما دعم ماريوس الرواية معلناً أن ماريا استشارته قبل أن تفاتح به زوجها أثناء المشاجرة.

مع المساء لجأ كونسا الى العراء وقضى ليلته هناك.

أشعل سيجارة واستلقى على الرمل يفكر في التطورات التي قلبت حياته منذ نزل الواحة.

أحداث كالحلم.

فكر طويلاً وهو مستلق على ظهره قبل أن يكتشف أنه يحب زهرة!

لم يتعامل مع الأمر كله بجدية. تردد على بيتها في البداية تمضية للوقت وقتلاً للفراغ، ثم تدخل الزبرجداني والإمام وفرضا عليه تلك المسرحية التي انتهت الى الزواج، ولكنه لم يتوقع أبداً أن يتطور الأمر الى حد أن يتعلق بها ويضعها في كفة واحدة مع ماريا. بل ها هو الآن يضحي بماريا ويفضّل زهرة. أليست الحياة نكتة إذا كان بوسع الدعابة أن تقلب حياة الإنسان رأساً على عقب؟ أوليست الصدفة هي التي تقودنا من أنوفنا وتجتاز بنا دهاليز وأنفاقاً لا خبرة لنا بها قد تفضي إلى الضوء وقد تؤدي إلى الظلمة الأبدية؟ فإلى أين يقود هذا النفق المظلم؟

الآن منحته الصحراء صفاء العقل وأرته حياته السابقة في ضوء جديد. أدرك أن الصحراء هي التي ساعدت هؤلاء الملثمين الحكماء على كبح النفس فحققوا الإنسجام. يتصارعون مع أنفسهم منذ الطفولة لتدريبها على السكون. قال له القاضي الزبرجداني أن الشيخ غوما قضى في شبابه عاماً كاملاً في الحمادة الحمراء لم يتبادل كلمة مع مخلوق ولم يذق طعماً للطعام باستثناء الكلأ والأعشاب، بل ولم يشاهد طوال هذه المدة إنساناً. فكيف لا يتمكن إنسان مثله أن يدوس على شهواته ويحتقر رغباته؟ قال له القاضي أيضاً أن الشيخ كثيراً ما يفقد صوابه. برغم تجاربه القاسية. ويستولي عليه الغضب. فما الذي يمكن أن يقوله عن نفسه وهو الذي عاش طول عمره راكضاً خلف السراب معمياً عن رؤية الرذائل؟

إستطاع شيطان الدنيا أن يخدعه وجعله يغفل عن نفسه.

عاش غريباً عن الناس وعن نفسه.

الآن عرف أن الحقيقة هنا. في الروح. في لحظة واحدة مدت له الصحراء يد

المساعدة وقادته الى الحقيقة. الحقيقة هنا. في هذا القفص الصغير. في الصدر.

في الصباح داس على بنزين اللاندروفر وتوجه إلى الحي القديم.

عانق زهرة وقال لها أنه يحبها إلى الأبد.

(٤)

تعب الشيخ غوما وهو يحث أبناء القبيلة على التنازل عن كبرياء الملثمين والنزول الى الأرض التي تغرق الآن في مياه النبع السخية.

لم يستطع أن يقنع سوى نفر قليل. بل انهم اقتفوا أثره ليس عن قناعة وإنما دفعهم إلى ذلك الحياء ورغبتهم في أن يكونوا عند حسن ظنه. لاحظ إشمئزازهم وحذرهم من الطين وتأففهم من السبخة وخوفهم من ملامسة الماء البارد! يأتون بصحبته في الصباح ويخلعون نعل التمبا على مضض ليخوضوا في الجداول ويقفزوا في الهواء وهم يصرخون بأعلى أصواتهم لمجرد لسعة صغيرة من ماء النبع البارد!

يتبادلون ضحكات عصبية وهم يخفون امتعاضهم خلف عماماتهم الكبيرة متحاشين أن تلتقي عيونهم بعينيه.

كان النزول الى الحقل عقاباً خاصة بالنسبة لأولئك المدللين الذين لم يألفوا الاستيقاظ مبكراً.

يجيئون الى النبع وهم يتحسسون طريقهم بعيون يعميها النوم. يتناولون المعاول ويتظاهرون بمباشرة العمل وتقليب الأرض. ولكن هذه الأرض التي لم تتعود إستقبال الكسالى سرعان ما تكشفهم وتفضح أمرهم: بدل أن يضربوا الأرض بالمعاول يصيبون أصابع أرجلهم فيصيحون بأعلى صوت وكثيراً ما يسقطون على الأرض يتلوون من الألم.

حدث ذلك مراراً.

ولم يعرف الشيخ عما إذا كان ذلك حيلة جديدة ابتكروها للتخلص من الحقل أم أن الغشامة والجهل بالفلاحة هما السبب.

إنهم كالأطفال. لقد احتكموا إلى أساليب الأطفال في المدرسة، يعمدون إلى دق أرجلهم بالأحجار كي يجد لهم المعلم مبرراً يعفيهم من المدرسة.

والواقع أن غوما لم يجد حماساً من عقلاء القبيلة كي يتنازلوا ويحرثوا الأرض، فكيف يجده عند الشباب والفتية والطائشين؟

حتى الشيخان آهر وخليل يماطلان ويتكاسلان. قال لهم في آخر اجتماع حضره الوجهاء: «إذا لم تفعلوا شيئاً لدفع هؤلاء المكابرين في الزراعة فإني لا أرى لكم مستقبلاً غير الفناء». وارتدى نعله وانطلق الى أنقاض نخلته المقدسة!

وها هو الآن يقف وحيداً يستصلح العراء ويغمر الأرض البور العطشى بالماء. وقف كي يلتقط أنفاسه. كان يشمر عن ساعديه ورجليه معاً، يمسك بمعول طويل المقبض وقدماه تغوصان في الوحل المملح بالسبخة. رأى كوكبة قادمة من مستوطنة الأكواخ تتجه الى السوق. تعمدوا أن يسلكوا أبعد طريق. يمتد الى أقصى الشرق. كي يتجنبوا المرور على الحقل. لانت أشعة الشمس ورحم قرصها المشتعل الكائنات والأرض مع انكفائها نحو قمم التلال الممتدة جنوب غرب الواحة.

من جهة الغابة لاح وفد مهيب. راقبهم وهم يعبرون العراء الفاصل بين الغابة. ناحية عين الكرمة. والأراضي المستصلحة.

لم يستطع أن يتبينهم حتى اقتربوا. ضم الوفد القاضي الزبرجداني والإمام مختار الساطور يتقدمهم الشيخ آهر. بعد قليل أبصر شبح الشيخ خليل يطلع من الشرق قادماً من الأكواخ.

غسل أطرافه الملوثة بالطين وأغلق صنبور الماء فسمع القاضي يهتف ممازحاً:

- إذا رأيت فرسان الصحراء يتطاولون في الزراعة فاعلم أن الله سوف يغرق الدنيا بالسيل. أم أنني على خطأ يا جماعة؟

أطلق ضحكة متوترة فحاول الإمام أن يشد أزره بضحكة مماثلة. اتخذوا مجلسهم خلف جدار الأسمنت الذي أقامه رجال كونسا حول فوهة البئر. تحلقوا حول أدوات الشاي التي أصبح الشيخ غوما يحتفظ بها في النبع. وصل خليل فتولى الإمام الساطور تحضير الشاي.

أخذ القاضي زمام المبادرة:

ـ الحق أننا كنّا نسعى منذ زمن بعيد لتنفيذ هذه المهمة. ولكن المشاغل كما تعلم...

لم يفاجأ غوما فواصل الزبرجداني وهو يمسح العرق على صلعته بمنديل مخطط:

ـ مصالحة المسلم إذا تخاصم مع مسلم واجب كل مسلم. هذا ما تقوله الشريعة..

انتظر غوما زيارة الوفد المهيب لأنهم سبق وأن زاروا مهمدو وحاولوا أن يستعينوا به ولكن العجوز قال لهم بالحرف: « .. إذا كنتم تعتقدون أن ثمة من يستطيع أن يؤثر على الشيخ غوما فأنتم واهمون. اعلموا أن لا أحد في الدنيا يمكنه أن يحمله على ما لم يقتنع بفعله..». هكذا أخبرهم العجوز فتركوه وغادروا المغارة غاضبين.

استمر القاضي:

ـ قلنا انه من غير اللائق أن تستمر القطيعة بين شخصين وقورين مثلكما يكنّ لهما الناس الاحترام. هذا لا يليق. ما رأي الجماعة؟ هل قلت شيئاً خاطئاً؟

أيدوه بحركة موافقة من رؤوسهم، مهمهمين بألفاظ مبهمة.

اعتصم غوما بمدنه الأسطورية التي بدأ بناءها على الأرض بغصن يابس.

أخذ صالح الزبرجداني نفساً عميقاً قبل أن يواصل خطابه:

ـ .. خاصة وأن الخلاف لم يكن جدياً إلى هذا الحد. سوف يعتذر عن وصفه لكلامك بالنميمة وتصفح أنت.. وينتهي كل شيء. وعفا الله عما سلف. أليس كذلك يا جماعة؟

همهم الجماعة بالموافقة.

ظل غوما منكبّاً على مدنه، يبني ويشيد ويخطط بهمة ونشاط.

سعل القاضي:

ـ هو قال لي أنك تؤاخذه على تعاون أبيه مع الطليان وتعاون جده مع القائمقام ولكني قلت ان هذا غير صحيح. الشيخ غوما رجل مسلم لا يخالف الشريعة. الآية الكريمة تقول: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} فكيف يستطيع رجل حكيم أن يؤاخذك على مواقف آبائك وأجدادك ويخالف القرآن...

تحدث بعدها القاضي طويلاً وتداعى آخرون من الوفد وهبوا لمساندته أما هو فغاب في مدينته الأسطورية الحصينة، وظل معتصماً هناك حتى هجم الليل.

(٥)

تواصلت المشاجرات بين كونسا ومساعده ماريوس وإن اقتصرت على التلاسن ولم تتطور إلى الاشتباك بالأيدي كما في السابق. هجر كونسا حياة المعسكر وانتقل إلى بيت زهرة واحتمى من مطاردات مساعده بعتمة الحي القديم. لم تمض أسابيع قليلة حتى تلقى كونسا مظروفاً أنيقاً من مكتب الشركة الفرعي بطرابلس دس فيه المدير خطاباً رسمياً ممهوراً بالأختام وتوقيع رئيس مجلس الإدارة يعلن له إنهاء خدماته من الشركة ويطلب منه تسليم ما في عهدته لماريوس.

لم يفاجأ كونسا، ويبدو أنه كان ينتظر وصول هذا الخطاب منذ زمن بعيد. شعر بسعادة غامضة وهو يتوجه إلى المعسكر ويشرع في إعداد محضر التسليم والاستلام.

كان يعرف أن ماريوس لم يتوقف عن تزويد فرع الشركة بالعاصمة بالتقارير والمعلومات الحقيقية والملفقة طوال وجودهما في الواحة. وبالتحديد منذ تعلق بزهرة وأشهر إسلامه حتى قدوم ماريا التي جاءت مدفوعة بتقاريره ووشاياته أيضاً. تنفس هواء الحرية وهو يغادر مقر الشركة إلى الأبد. سرح على قدميه في العراء الجنوبي خلف الغابة وهام على وجهه هناك حتى انتصف النهار. في طريق العودة قضى القيلولة في الغابة.

استلقى تحت نخلة كثيفة وتوسد كوماً من الرمل. أصغى لحفيف أشجار النخيل وهي تستجيب لمداعبات نسمة شمالية رقيقة. ثم عمّ صمت حزين لا يخرقه إلا

طنين ذبابة عنيدة ظلت تحوم حول وجهه بإلحاح. قال لنفسه أنه تحرر من العبء الأول وعليه الآن أن يستعد للتخلص من العبء الثاني. هي مجنونة ومؤهلة لأن تنفذ وعيدها فتأتي بالطفلين وترميهما في وجهه. هكذا قالت وهكذا ستفعل.

ماريا أعند من حمار. مزاجها المتقلب وطبيعتها الهوائية تجعلها قادرة على تنفيذ أي فكرة مجنونة. تذكر كيف تلاسنا بعد زواجهما بشهور أثناء تحضير طعام الغداء في المطبخ. كانت تمسك بالسكين وتقطع البصل فأمرته أن يغرب عن وجهها فوراً وإلا فإنها سوف تضطر لتقطيع أوصاله بالسكين. لم يرضخ للتهديد فوجه لها كلمة استفزتها فهجمت عليه ووجهت له عدة طعنات تلقاها في معصمه الأيمن. ما زالت آثار تلك الطعنات تزين ساعده حتى اليوم. قالت له بعد أن التأم الجرح: « .. هذه للذكرى. حتى لا تجرؤ مرة أخرى». منذ ذلك اليوم بدأ يتخذ الاحتياطات ويحسب لأعصابها ألف حساب. في مرة أخرى تشاجرا على شاطىء الجزيرة في يوم صيفي قائظ هبت فيه الأنسام اللافحة التي تعود أهل كريت استقبالها كل عام في مثل هذا الوقت من شمال افريقيا ويطلقون عليها في قاموسهم المحلي: «أنفاس الصحراء الكبرى». وكان لهذه الرياح تأثير غامض على أعصاب الأهالي يسميه العجائز: «أنفاس أطلانطيدا» ويرجعه خبراء الطب الشعبي إلى تأثيرات ميتافيزيقية تسببها رياح الصحراء. يومها أيقن أن ماريا قد أصيبت بهذا المرض. فلم تتوقف عن التفوه بالشتائم منذ الصباح. تشاجرت مع أمها قبل الخروج إلى الشاطىء. وتشاتمت مع جارتها بسبب الكلب. وتلاحمت معه في عراك بالأيدي أمام المصطافين. حاول تهدئتها فتمادت وتناولت دورا وألقت بها في خضم البحر بجوار نتوءات صخرية. ساعده في إنقاذ الطفلة عدد من المصطافين الذين أجمعوا أن زوجته مجنونة ومكانها الطبيعي ليس التسكع على الشاطىء وإنما مستشفى الأمراض العقلية!

وبرغم أن موسم هبوب «أنفاس الصحراء الكبرى» لا يستمر طويلاً إلا أن المرض بقي مع ماريا بل وتطور فقال له أحد الأطباء أنه عصابي. لاحظ التغيرات المفاجئة في مزاجها. تتمتع بمزاج رائق ومرح وبعد لحظات تكتئب وتحزن وتدس رأسها في حجرها وتبكي بلا سبب. في إحدى الليالي استيقظ على نشيجها فوجد أنها بللت الوسادة بدموعها. ولم يصبح الصبح حتى كانت في مزاج غاية في الصّفاء. الأطباء قالوا في تقاريرهم أنها حالة نفسية أجمع على تسميتها في الموسوعة الطبية بعد الحرب العالمية: «الاكتئاب الحضاري». أما عجائز كريت

فأكدوا أن السبب يعود إلى «أنفاس أطلانطيدا» القادمة من شمال إفريقيا.

الآن فقط عرف أن هذه الأنفاس الأسطورية ما هي إلا رياح القبلي التي تهب على الصحراء، في فصل الصيف. وكانت حكايات العجائز الكريتيين وغرامهم المتوارث في تأليف الأساطير عن شاطىء ليبيا العظيم يؤجج فضوله ويغذّي فيه حنيناً غامضاً إلى الماضي. أكد له الأصدقاء الذين يؤمنون بتناسخ الأرواح أنه ولد ـ في حياته السابقة ـ على الشواطىء المقابلة ونشأ هناك. وليس من المستبعد أن تكون قافلة تجارية قد ألقت بأحد أجداده الى الجزيرة فطاب له المقام واستقر في كريت. يتضاحكون ويمضون في ممازحته: «أصولك إفريقية. هذا واضح. الدماء الزنجية تجري في عروقك. انظروا إلى شعره المجعد؟ انظروا إلى شفتيه المفلطحتين».

ولكنه كان يسعى الى الصحراء لأنه يحن إلى شيء آخر. هل هو الحرية؟

وقد درّب نفسه طويلاً حتى كسب ثقتها واطمأنت إليه ففتحت له قلبها وهمست له بأولى أسرارها. أحس بالأمان والسكينة فقرر أن يسلم لها نفسه. هو الآن بين يديها، يحاول أن يفهم لغتها ويداعبها كي تبادله عشقاً بعشق.

يبدو له سكونها مخيفاً، موحشاً، يخفي تهديداً مجهولاً. ولكنها الآن ـ بعد أن قرر أن يستسلم لها ـ تحتويه في أحضانها بحنان.

انحرفت الشمس فنهض وتوجه إلى النبع. وجد الشيخ غوما يتوضأ في الجدول. عدّل في وضع نظارتيه على أنفه وطلب منه أن يخصص له قطعة من أرض الحقل.

(٦)

انتقلت شركة الحفر للبحث عن الماء في موقع جديد بوادي الأجال وخلفت كونسا وراءها.

لم يفت الأهالي أن يمرنوا ألسنتهم في أوقات الفراغ. قالوا ان الرقريقي أصابه مسّ. وأضافوا وهم يحتمون من حرّ الشمس بظل العشية: «كنا نعرف أن جيرته لمعشر الجن لن تنتهي على خير». وعقب آخرون فأكدوا أن شخصين وراء اللعب

بعقل الرومي هما: القاضي والإمام!

الوحيد الذي لم يجد صعوبة في معرفة مرض كونسا هو الشيخ غوما. فمنذ وصوله للواحة وهو يراقب قلقه. أدرك أن الرقريقي يتململ بحثاً عن شيء نفيس ضيّعه.

نظر إليه طويلاً من تحت لثامه عندما جاءه في ذلك اليوم وطلب منه أرضاً للاستصلاح. قال له وهو يقرأ في عينيه:

ـ لا تنتظر من الصحراء أن تعطيك الخلاص. لا شيء ينقذك من نفسك أبداً.

ابتسم كونسا ولكن غوما كان يشك فيما إذا استطاع الرقريقي ـ بلغته العربية الركيكة ـ فهم فكرته.

كونسا الآن يرتدي جرداً ناصعاً أنيقاً ويتسكع بين بيته في الحي القديم والحقل. ينهمك كل يوم في ري الأرض واستصلاح التربة العطشى منذ آلاف السنين. أمّا أيام العشية فيقضيها في السوق أو بجوار المتسوّل عند الجامع.

كانت علاقته بالشحاذ المقعد، الأعمى، حميمة.

منذ يومين جاءه القاضي وأخذه من يده كي يبتعد به عن المتسول وقال له:

ـ بلغني أنك تنوي الدخول في التصوف. إعلم أن اعتناق الإسلام لا يعني ترك الدنيا والهروب إلى التصوّف. الإمام عليّ يقول: «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». فهل فهمتني؟

أجاب كونسا بأنه لا ينوي التصوف ولا يريد غير الطمأنينة. هنا هتف الزبرجداني:

ـ أرأيت؟ ها أنت تتحدث بلغة الدراويش. الطمأنينة لا توجد إلا في قاموسهم. النبي يحث على أن تعمل للدنيا...

ولكن كونسا كان قد انسلّ ودخل الأزقة المظلمة وترك القاضي واقفاً. ضرب الزبرجداني كفّاً بكف وصاح: «لا حول الله. حقاً ان جيرانه من الدنيا السفلية استطاعوا أن يؤثروا في عقله!». التفت يميناً ويساراً وقال بصوت مسموع:

«يشيعون مسؤوليتي عمّا حدث للرجل. لست مسؤولاً إذا تدروش الممسوسون! ». ثم توجه إلى الجامع.

أما كونسا فصعد الجبل من الطريق الملتوي وزار مهمدو. مكث هناك حتى تزحزحت الشمس عن موقفها العمودي فنزل الجبل من الناحية الجنوبية مقرراً أن يلتحق بالحقل.

في الطريق مر عليه أحد الفلاحين الذين سبق وأن عرفهم في الماضي واحتسى معهم «عصير النخيل» الشيطاني. تطوع ودعاه للجلوس خلفه على الحمار لتوصيله لحقل الشيخ غوما. لكز الفلاح حماره المنهك وقال مستعيداً الذكريات:

ـ كانت أياماً حلوة. كم شربنا في تلك الليلة؟ أربع قلل مرة واحدة! قلل مضى على تخميرها شهور وشهور. يا ربي.. تلك كمية تكفي لجعل آدرار كلها تمشي بالمقلوب! هيء ـ هيء ـ هيء!

نخس حماره بمهماز خشبي وبصق المضغة وأضاف مبتسماً:

ـ أهنئك على مفارقة ذلك الرومي المتغطرس. ما اسمه؟ ماريو.. س. ماريوس. لعنة الله عليه. إنه يكره الإسلام ويحقد على المسلمين. قال لأحد المزارعين مرة أنه ينوي أن يذهب إلى بلادكم ويجمع جيشاً ويأتي به كي يقطع رؤوس الفلاحين الكفرة! هيء ـ هيء ـ هيء! هل تتصور: نحن كفرة!

بصق اللعاب الرمادي مرة أخرى وواصل ثرثرته:

ـ هكذا ترجم مدهوب السردوك رطانته. ولكن المزارع لم يغضب من الرومي بقدر ما غضب من السردوك المسلم الذي ارتضى أن يعمل تحت أمرة رومي ينوي ذبح المسلمين. أم أني على خطأ يا كونسا؟ قل لي بالله؟.. نسيت أن أقول لك. البارحة تجرعنا قلة ونصف. لدينا قلة أخرى نخبئها للطوارىء. ما رأيك لو نجتمع عليها الليلة مثل أيام زمان. القمر سيكون ساطعاً كالنهار... سنحتفل باكتمال البدر. نحن نفعل ذلك كل شهر.. هل تأتي؟ أخبرني في طريق عودتك من حقل الشيخ غوما. هيء ـ هيء ـ هيء!

وعده بحضور حفل استقبال منتصف الشهر القمري احتفاء بالبدر الفضي وانطلق يعبر الغابة شاقاً طريقه بين أدغال الديس وأحراش النخيل.

ابتسم الفلاح وهو يراقب قامة الرقريقي القصيرة، وجسمه المكتنز المتلحف بالجرد العربي فيبدو في مشيته، وهيئته، ووجهه المتوج بنظارتين مطلتين من خلف الجرد، مضحكاً وظريفاً!

ولكن كونسا وإن نوى حقاً حضور «الليلة الفضية» إلا أنه غرق في همومه وهاجر بعيداً، اجتاز الصحراء الكبرى في طريقه الى ما وراء البحار! فكّر. وهو يمشي بين الأحراش. كيف لم يكتشف هيامه بالتاريخ وولعه بالحضارات القديمة إلا متأخراً عندما أشرف على إنهاء تخصصه في كلية الجيولوجيا. قرر أن يبدأ من جديد ويلتحق بكلية التاريخ أو الأركيولوجيا ولكن أمه أخبرته أنها لا تنوي الإنفاق على دراسته إلى الأبد. قالت وهي تجلس في مواجهة شمس الأصيل كجزء من خطة طويلة الأمد لمعالجة الروماتيزم المزمن. تنشغل في رتق ثوب وتنكفىء إلى الأمام وتتقوس محاولة أن تلضم الخيط في خرم الإبرة: « .. لم أرث ثروة عن أجدادي، كما لم أعثر على كنز يكفي لتغطية مصاريف دراسة أبدية! ». ثم تجاهد ببطولة كي تهتدي إلى خرم الإبرة حتى أنها تشهق بارتياح من أحرز نصراً ساحقاً عندما تنجح في إدخال الخيط إلى الخرم. كانت تعاني من ضعف البصر الى جانب الروماتيزم. ضعف البصر مرض متوارث في عائلتهم.

يومها خرج من البيت وقرر أن يلتحق بمطعم على الشاطىء ليطعم سياح الجزيرة من يديه ويستعين بعطاياهم في تنفيذ برنامجه في دراسة التاريخ أو علم الآثار. ولكن الصدفة ألقت بأستاذه الجليل فارتطم به في مدخل الكلية ونصحه بعدما علم بخطته: « كل العلوم متجاورة ومتشابهة. وما تعطيه لك كلية واحدة لن تستطيع كلية أخرى أن تعطيك أكثر منه. ما الذي تمنحه الجامعات برأيك؟ إنها لا تمنح سوى المنهج. منهج البحث في المعرفة وفي الحياة. أما كيف يتم استعمال هذا المنهج فأمر يعتمد عليك. لديك الآن خطة العمل من كلية الجيولوجيا، لديك البرنامج واستعماله يعتمد على مواهبك. تستطيع أن تستخدم المنهج في أي علم آخر. في التاريخ أو الأركيولوجيا أو حتى الفلك! ». مسح البروفسور المهيب شعر رأسه وعدل من تسريحة شعره التي عبثت بها نسمة بحرية وختم نصيحته: « .. ألم أقل لكم أكثر من مرة أن الأركيولوجيين وحتى الجيولوجيين استفادوا من هوميروس وهيرودوت.. السرّ في استعمال المفتاح السحري إلى عالم المعرفة، وليس في العلم نفسه. هل فهمتني؟ » ثم طبطب بأبوة على منكبه وانطلق باتجاه البحر والريح تعبث بشعر رأسه الأشيب.

التحق للعمل بفرع الشركة بالجزيرة وانكبّ على دراسة التاريخ وأنقاض الحضارات القديمة في المكتبات. تعرّف على أوركا الهيفاء ذات الأنف اليوناني الأصيل والعينين الناعستين الوديعتين فقرر أن يرتبط بها الى الأبد. كشف الموت سرّه وعلم بنيّته التي لم يبح بها لأحد فقرر أن يحبط خطته الخفية فجاء واختطفها منه وماتت تحت عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية! كانت عملية ناجحة ولكنها أصيبت بمضاعفات أدت إلى نزيف. فهجر المكتبات وأخذ إجازة بدون مرتب وسافر لتأدية زيارات ميدانية للأنقاض في بلاد اليونان. ثم هام على وجهه في ايطاليا وفرنسا واسبانيا. عاد إلى كريت وكتب مقالته التي قادت له النجاح من أنفه: «الهيلينية في علم الآثار. أو تأثير الأسلوب اليوناني في معمار البلدان المجاورة». تلقى بعدها الدعوات من الجامعات والمعاهد لإلقاء محاضرات في هذا الموضوع الذي اعتبرته إحدى المجلات المتخصصة اكتشافاً جديداً في علم الآثار اليونانية. وقد جاءه الصحفيون والمخبرون الفضوليون الباحثون عن الإثارة بمجرد أن علموا أنه ليس أستاذاً متخصصاً في الأركيولوجيا.

بعد سنتين من البحث والسفر (زار برقة وتسكع بين أنقاض المدن الخمس) عاد إلى الجزيرة وكتب الحلقة الثانية من دراسته حول: «الهيلينية في علم الآثار أو التأثيرات اليونانية في معمار البلدان غير الأوروبية» تناول فيها مشاهداته وأبحاثه في آسيا الصغرى وشمال إفريقيا. إنهالت عليه الدعوات لحضور المؤتمرات فتعرف على ماريا في مؤتمر أثينا السنوي حول «مستقبل علم الآثار» وتزوجا بعد علاقة استمرت بضعة أشهر. وعندما عرض عليه مدير فرع الشركة تولي مكتب شمال إفريقيا قبل فوراً عازماً أن ينفذ خطته في استكمال دراسة الحضارات التي تعاقبت على الشاطىء الليبي العظيم. بدأ نشاطه في برقة. وحفر سبعة آبار ارتوازية ونقب بين الأنقاض ووضع اللمسات الأخيرة في مخطوطة «حضارة اليونان في شمال إفريقيا» ولكنه لم ينشرها. ثم فازت شركته بمناقصات حفر عدد من الآبار في منطقة فزان فبدأ في مرزق وانتهى إلى آدرار.

لم يقدر نصيحة معلمه الحكيم تقديراً حقيقياً ولم يدرك حاجته إلى «الألياذة» و«الأوديسة» إلا الآن، أو فلنقل منذ سنتين بعدما تنفس هواء الشمال الإفريقي وذاق طعم الصحراء الكبرى، أكل الترفاس الاسطوري وتمتع بماء الأنهار السفلية. و... قرر أن يغيب في الماضي. أن يصبح جزءاً من التاريخ القديم. خاصة بعدما أرهقه جنون ماريا واشتداد مرضها العصابي. يحن إلى دورا وميني والقطة مور

ولكن الحنين الخفي إلى الماضي أقوى وأشد. لقد أصبح هاجساً. مرضاً. حمّى. أغوته الحمّى وقادته في الطريق الخفي. قال في نفسه وهو ينزع الجرد الأنيق ويغرق في الوحل المالح حتى ركبتيه: « .. الآن سأنتظر ماريا. ستأتي بالأطفال الذين تهددتني بأنها ستلقيهم في وجهي. سوف آخذهم وأدخلهم المدرسة. هيء. هيء... سأفوت عليها اللعب على أعصابي.. ها - ها - ها... سأدخلهم المدرسة مع أبناء الفلاحين! ». اكتشف أنه لا يحب ماريا. لم يعد يحبها من زمان.

(٧)

.. ولكن ماريا لم تعد.

لم يصدق كونسا أن تتراجع ماريا العنيدة عن تنفيذ تهديد وعدت به. تلقى رسالة باكية من أمّه وأخرى من الطفلين معاً في محاولة يائسة لابتزازه. لم تحتمل الانتظار أكثر فجاءت بعد شهور ولكن.. بدون أطفال.

قبلت بعد إلحاح في أن تتنازل وتقيم معه في بيت زهرة. قالت انها جاءت كي تعيده إلى عقله وتعود به إلى الجزيرة حياً أو ميتاً! ضحكت وهي تقول ذلك فرأى كونسا الجنون يلمع في عينيها! لاطفها وتحايل وطمأنها إلى أنه لم يفقد الصحراء الكبرى... « .. سأهرب من آدرار بمجرد أن أنجز مادة الجزء الأخير من «حضارة اليونان في شمال إفريقيا». هذا عمل يمكنك أن تفخري به. عمل تاريخي لم يكتبه أحد من قبل. سوف ترين. عمل يستحق كل ما لحقني بسببه من متاعب. ستسافرين الآن وسألحق بك بعد شهرين. سوف تفخرين بكونساك أخيراً! هه - هه - هه..». ولكنها بدل أن تنفذ الاتفاق وتسافر هجمت على ضرتها في الليل بالسكين مقررة أن تتخلص من زهرة. ويبدو أنها فهمت بحاسة المرأة نواياه الحقيقية. أصيبت زهرة بجروح في الكتف وعضلات الصدر. كانت ماريا توجه لها الطعنات محاولة أن تصيبها في قلبها أثناء العراك ولكنها أخطأت الهدف.

جاء الممرض مسعود بحقيبة الضمادات ليعتني بالجريحة وأخرج كونسا زوجته الهائجة من البيت بمساعدة الجيران. تطوع الفلاحون وحلقوا رؤوس النخيل وجاؤوا له بأكوام الجريد وساهموا في تشييد كوخ أنيق في نفس العراء المجاور لمملكة الجن حيث سبق لكونسا وأن أقام معسكر الشركة. يؤكد الأهالي الآن أن

المكان مسكون بالكامل، فقد زحف القوم السفليّون واستولوا على مقر المعسكر أيضاً بمجرد أن هجرته الشركة. في اليوم التالي حذّر عدد من عقلاء الواحة من إقامة الكوخ على الأنقاض. وقالوا ان الجن يعشق الأنقاض ولا تطيب له الإقامة إلا بين الأنقاض المهجورة وآثار الرماد. ولكن كونسا لم يجد مكاناً آمناً وملائماً أكثر من ذلك المكان. وعقّب على تحذير علماء الواحة قائلاً ان مجاورة الجن أفضل من مجاورة الأنس!

أيده في هذا الرأي عدد من الفلاحين الحكماء وهم يحفرون أسس الكوخ في الأرض ويرفعون أصواتهم بالغناء!

اضطر كونسا في الأيام الأولى أن يقيد زوجته بالحبال.

أصيبت بالهستيريا وألقت بكل ما وقعت عليه يديها في وجهه وهي تتلفظ بالألقاب البذيئة: يلمع في عينيها الجنون وتتطاير فقاعات الزبد على فمها وشفتيها. حاول الجميع أن يبعدوا كل الآلات الحادة: السكاكين، الفؤوس، المقصات، فوجدت طريقها إلى سلاح الشوك! لم يستطيعوا أن يخبئوا شوك النخيل من وجهها أيضاً فضربت كونسا بعرف نخلة مسنن بالأشواك فأدمت يديه ووجهه وجرحت يديها أيضاً بسبب جهلها وسوء استعمالها لهذا السلاح!

أيده الفلاحون في ضرورة تقييد اليدين والرجلين. فضرب العقلاء الأكف بالأكف وقالوا: «ألم نحذركم؟ ها قد أصابها الجن بمس!».

أما قبيلة الشيخ غوما فاقترحت علاجاً آخراً كان شائعاً إلى وقت قريب لمعالجة مثل هذه الحالات. قالوا: «أقيموا لها حفلة غناء وسوف ترون النتيجة!» وكانوا جادين في اقتراحهم الى درجة أن مغري قام بوساطة نقل بها تفاصيل الاقتراح الى كونسا نيابة عن الشيخ آهر شخصياً.

أصبح كونسا ممزقاً بين المريضتين. يداعب زهرة في الحي القديم ويهمس لها بالعزاء بلغته الأصلية ثم يهرع ليمسح الزبد عن شفتي ماريا في الكوخ المقام على الأنقاض المستوطنة من قبل الجن! أهمل الجداول وهجر حقل الشيخ غوما وتفرغ نهائياً لمعاناة المرأتين. حدث واستطاعت ماريا الافلات من عقالها فدخلت الغابة وقلبتها رأساً على عقب. حاولت في البداية إغواء الفلاحين انتقاماً من كونسا ومحاولة لحرق قلبه بالغيرة. ولكن جنونها والطريقة الاستعراضية التي نفذت بها

خطتها أجبرت الفلاحين على الفرار من وجهها. قالوا همساً أنهم لا يستطيعون مخالفة الشريعة ومعاشرة رومية نجسة. « .. ليست نجسة فحسب ولكنها مجنونة أيضاً. يا رب اهدنا لطريق النجاة في الدارين: دار الحق ودار الباطل! » ولما عجزت عن النيل من الفلاحين احتكمت الى السلاح: فطاردتهم بالمعاول والفؤوس وأعراف النخيل.

تعب كونسا من مطاردتها بين الأحراض فهب المتسول المقعد لإنقاذه. جاءوا به الى الكوخ على ظهر حمار. أوقد النار وأخرج العدة من جرابه المخبأ تحت الجلباب الفضفاض. كواها بالسيخ الملتهب في رأسها حتى كاد يغمى على زوجها بسبب رائحة الشياط، مما حدا بالشيخ غوما أن يقوم بزيارة مفاجئة للرقريقي. وقف خارج الكوخ وأصغى لأنين الرومية قبل أن يهرع كونسا لاستقباله ممتقع الوجه. قال الشيخ مؤنباً:

ـ لا يليق بعالم مثلك أن يستعين بالدجّالين في معالجة المرضى!

ثم دعاه لجولة عبر أنقاض مستعمرته القديمة قبل حلول المساء وقصَّ عليه تفاصيل ذلك الفقيه المحتال المدعو مبروك دبار ومنهجه في علاج الممسوسين فأودى بحياة ابن مرزوق، وانتهى الشيخ الى أنه يميل لمنهج الغناء في العلاج! ووضع إمكانيات القبيلة تحت تصرفه وانصرف قبل هبوط العتمة. فتذكر كونسا ما يقوله الأهالي من أن جيرانه السفليين ينشطون بين الأنقاض مع الغروب فانسحب غوما وترك لهم المجال متعمداً.

وبرغم ثقة كونسا في الشيخ إلا أنه تنفس بارتياح بعد عملية الكوي ولم يستطع أن يطعن في منهج الشحاذ: تراجعت روح ماريا العدوانية واختفى بريق الجنون في عينيها وحل محله استسلام وشرود. تعلو شفتيها الآن ابتسامة بلهاء ويقطر اللعاب من فمها المفتوح في خيوط طويلة. فقدت الشهية وصامت عن الطعام فقرر كونسا أن يعود بها إلى الجزيرة بمجرد أن تتماثل زهرة للشفاء.

ولكن انفجار غطاء الاسمنت فوق فوهة النبع غير خطط الكثيرين.

(٩)

أدّى الضغط المتزايد للماء إلى تدمير الأسطوانة الأسمنتية الضخمة التي أعدت لسد الفوهة ومنع تدفق الماء. ويبدو أن غزارة النهر في المنابع السفلية تصاعدت وأدت إلى الإطاحة بالسدادة الإسمنتية فتصاعد الماء في الهواء أقوى من أي وقت مضى. فيبدو للمشاهد من بعيد مثل جبل زجاجي! كانت المياه العذبة صافية كالبلور وهي تشق الفضاء. غرقت الأراضي المستصلحة منذ اليوم الأول. وتنادى أبناء القبيلة واشتركوا مع الفلاحين وأهالي الحي القديم في إقامة السدود الترابية التي كانت تنهار وتتداعى بسبب عنف الماء الذي انطلق الآن يتجول بحرية تحت السبخة ويتسلل عبر الانفاق الأرضية الخفية ليطوق الواحة مقتفياً أثر الحزام الأخضر.

لم يتخيّل أحد في يوم من الأيام أن يكون ذلك الطوق الأخضر البديع الذي يحيط بعنق الواحة هو فخ متقن الصنع.

ولكن الأهالي لم يهتدوا إلى الخطر المختبىء تحت الرمال في الأيام الأولى. استمروا في إقامة السدود الترابية التي كانت مياه النبع تقتحمها وتغرقها وتتسلل الى المجاري السفلية المحيطة بآدرار، ولم ييأسوا ويتوقفوا عن تشييد السدود إلاّ بعد أن جاء مَنْ أخبرهم بسقوط أولى الضحايا. انهارت السبخة عند أطراف الغابة أقصى الجنوب وابتلع الوحل أحد الفلاحين. توقفوا عن العمل وتقاطروا على مكان الحادث. بدأت المنطقة تتراخى وتترجرج وتتحول الى وحل. سقط أحد الفضوليين في البالوعة ولم يستطيع جمع الحاضرين أن يتمكنوا من انتزاعه إلاّ بواسطة حبل طويل ألقوه له قبل أن يغيب فتشبث به وجروه الى الشاطىء الرملي عند حدود الغابة.

ارتبك العقلاء فغذوا الفوضى وانعكس ذلك على تصرفات الأهالي. سارع الجاروف إلى مركز البوليس لإبلاغ السلطات فأخبره ضابط المركز أن جهاز الابراق معطل بسبب خلل في المحرّك. حثّه الجاروف أن يفعل شيئاً فدعاه الضابط إلى اللاندروفر وانطلقا بحثاً عن أحد العساكر من ذوي الاختصاص في الميكانيكا وإصلاح المحركات. ولمّا أبدى الضابط (وهو رجل وقور في العقد الخامس من عمره تولى رئاسة المركز خلفاً للخرفاوي) شكّه في قدرة حكومة الولاية على تقديم مساعدة هب الجاروف في وجهه:

ـ بوسع الحكومة أن تعيد تلك الشركة اللعينة على أعقابها لتسد فوهة هذا النبع الملعون. كنت أعرف منذ البداية أن قصة النبع لن تنتهي على خير. وجد الشيخ غوما طريقة يخرّب بها آدرار! تفضل يا سيدي: هل تريد دليلاً أقوى من هذا الدليل على نواياه؟

أوقف الضابط اللاندروفر خطوات من بيت العسكري الميكانيكي ـ الواقع في نهاية الحي القديم غرباً ـ وضغط على المنبه عدة مرات. أطل رأس زوجته ثم عادت وأغلقت الباب وأخبرتهم أن زوجها ذهب الى الحقل.

لم يجدوه إلا في الغروب فسهروا معه الليل وهم يثرثرون ويحتسون الشاي الأخضر دون أن يعلموا أن الأرض تميد تحتهم وأطراف الواحة تتآكل.

استمرت دائرة الوحل الرجراج تلتهم الأرض وتزحف وتتسع. في المنطقة الجنوبية حيث أعلن الطوفان عن نفسه وظهر للعيان ارتفعت الكتل الطينية المالحة وتوسعت تعلوها طبقة كثيفة من الزبد ـ الذي تكوّن نتيجة ذوبان السبخة ـ ومضت تزحف على الواحة الراقدة في الطبق المستدير.

انضم للجماعة في مخفر البوليس القاضي والإمام وبعض الأعيان فتحولّت السهرة لاصلاح المحرك المعطل الى اجتماع للوجهاء. قتلوا الليل بالثرثرة ولعنوا قبيلة الملثمين ونبعها وتذكروا الماضي وذكروا الطوفان الأول الذي حدث منذ ثلاثة قرون عقب ذوبان ثلوج فاجأت الصحراء ـ ورأى فيها الكثيرون إحدى علامات القيامة ـ ولكنهم لم يسردوا، في جلستهم تلك، أساطير تشير، لا من قريب ولا من بعيد، إلى تداعي السبخة وتراخي الأرض وانهيار تجاويف الملح.

ارتفع هدير المحرّك مع قيام الساطور بأداء آذان الفجر من ربوة المخفر فأبرقوا للمسؤولين بعاصمة الولاية طالبين النجدة وتنفسوا الصعداء وهم يخرجون من المركز في عتمة الفجر وينتشرون في الأرض.

(١٠)

لم ينخفض مستوى الماء من النبع فعرف الشيخ غوما أن قوة الدفع من منابع النهر الجوفي لم تتغيّر. ازداد صفاء الماء المندفع في السماء وتلامع، في ضوء أشعة

الشروق، كما تتلامع النجوم في الليل البهيم. تابعه من سفوح الجبال الرملية المطلة على المنخفض وتحسّر على جبل الماء الضائع. خيّل له أنه يسمع هدير الماء وهو يرتفع في الفضاء ويعود ليخرّ على الأرض من هذه المسافة البعيدة. خيل له أيضاً أنه يسمع الهدير الجوفي للمنبع. شعر بنشوة غامضة وهو يحاول أن يفك رموز لغة الماء الخفية!

انتهى من تسابيح الصباح وأرسل آيس (الذي منعه الفيضان من التردد على المدرسة) كي يحشد الوجهاء لحضور اجتماع طارىء.

لم يتكامل العدد إلا مع الأصيل.

أبلغهم قراره بالاستعداد للرحيل والاعتصام بالصحراء الرملية. قال باختصار أنها طوق النجاة الوحيد ولا عاصم سواها من الماء. و.. انطلق باتجاه الواحة.

انحرف يميناً، ومشى بمحاذاة السفح الرملي المهيب باتجاه الشرق، ثم مضى ودار حول الواحة ونزل آدرار من الجهة الشرقية الشمالية. في الطريق لاحظ ابتلال الشريط الذي يطوّق الغابة وانتشار بقع كبيرة من الندى فعرف أن الماء يتسلل عبر مسارب السبخة القديمة ويأكل عنق الواحة.

وصل المغارة مع تراجع الحر وحلول العصر.

استقبله العرّاف مازحاً:

ـ ألم أقل لك أن نزول مولود لآل الجاروف سيكون نذير شؤم؟ هيء ـ هيء.. ألم أخبرك أن السيل سيأتي من الأراضي المنخفضة وليس من المرتفعات كما جرت العادة؟ هيء ـ هيء ـ هيء... سيغرق الدنيا وسيبتلع آدرار المجيدة... آل الجاروف لعنة هذه الواحة...

قاطعه غوما بصوت بارد:

ـ هل هذا وقت مزاح يا مهمدو؟

ـ وهل يروق المزاح إلاّ وقت الحرج؟ أرى أن حياة الاسترخاء في الواحة قد أنستك طبائع الملثمين.

ـ ليس لدينا وقت نضيعه في الهذر الآن. لملم متاعك وهيّا بنا.

- هيء - هيء - هيء .. إلى أين إن شاء الله؟

- إلى أرض الله الواسعة.. إلى الصحراء .

- لا عاصم اليوم من الماء يا شيخنا. هل أعد الشاي؟

تجاهل سؤاله حول الشاي واستمر يتحدث حول الماء :

- معك حق. حتى الجبل، يا مهمدو، لن يعصمك من الماء!

- الجبل؟ آه. ومن قال لك أنني أسعى للنجاة؟ البارحة بلغت المائة وسبع سنوات. هل تعلم أنني بلغت المائة وسبع سنوات؟ لم أبح لك بالحقيقة طوال السنوات الماضية حتى لا تقول أن مهمدو يخرّف وتطعن في قواي العقلية. هل أعدّ الشاي؟

- ولكني أعرف جبلاً آخر لا يأتيه الباطل سينجينا من الماء . أسرع وكف عن المزاح .

- مائة وسبع سنوات. يحقَ ليّ الآن أن أستقبل قدري بشجاعة. هيء . هيء . هيء ...

نهض الى كوم الحطب ببطء . تعثر في مشيته حتى كاد يسقط على الأرض. لم يتعثر، ولم ترتطم قدمه بجسم وإنما ترنح فقال غوما في نفسه ان العجوز مؤهل حقاً لحمل المائة وسبع سنوات. انحنى فوق الحطب وهو ما يزال يبتسم.

اقترب منه غوما وقال محاولاً أن يسيطر على سورة الغضب :

- هل تتعمد استفزازي؟ ألا ترى أن الوقت غير مناسب لإعداد الشاي؟ أنا أقول لك أن آدرار تتآكل والماء ينخر حولها كالسوس. ليس لدينا وقت نضيعه. يجب أن تأتي معي...

- إلى أين إن شاء الله؟

- إلى الصحراء!

- هيء - هيء - هيء ...

ـ هل هذا جواب؟

وقف العراف في مواجهة صديقه القديم ونظر في عينيه لحظات فرأى الاصرار في مقلتيه. أما غوما فقد رأى في عيني العجوز الكابيتين الضعيفتين دموعاً حقيقية.

مضى على المواجهة لحظات كأنها يوم كامل. لانت بعدها ملامح العراف وقال وهو يخطو نحو مدخل الكهف ببطء:

ـ حسناً. سأفعل ذلك إكراماً لك..

عاد من المغارة يتأبط جمجمة ناصعة البياض. نفس الجمجمة التي قالت الأساطير أن معلمه الشنقيطي خبأ له فيها نصيبه من كنز بئر العطشان قبل أن يبطش به القائمقام.

قال وهو يقف في مواجهة الشيخ:

ـ هذه كل أمتعتي.

قال غوما في نفسه أن مهمدو يستخدم الجمجمة البيضاء كتعويذة. ثم قال بصوت مسموع:

ـ ومن الأفضل ألا تحمل أمتعة على الاطلاق. هذه أول حكمة يتعلمها المرء من الصحراء.

قال العجوز وهو يتحرك نحو المنحدر:

ـ هذا أول شروط الحرية. إذا تحررت من المتاع تحررت من عبء إذا داهمك السيل. هذه حيلة تعلمتها أثناء رحلاتي في الصحراء أيضاً. ولكني لا أستطيع أن أفارق الجمجمة.

رفع بصره نحو غوما، ويبدو أنه توقع أن يسأله غوما عن السبب ولكن الشيخ لم يفعل فقال العجوز في نفسه: «يحاول دائماً أن يبلغ حدوداً غير متوقعة في النبل. النبلاء يكتمون فضولهم».

هبط المساء ومشى غوما في المقدمة. اختار الطريق العمودي الجنوبي كي يختصر الطريق وينفذ الى السبيل الشرقي ـ الجنوبي قبل هجوم الظلام. ترنح

مهمدو مرة أخرى فمد غوما نحوه يد المساعدة. جلس العراف فوق صخرة كبيرة ونظر في الأفق البعيد حيث تلتمع مياه النبع المفلوتة في عتمة المساء. قال بهدوء:

- هذا مضحك. ما أفعله الآن مضحك يا شيخ غوما. يؤسفني أن أخبرك بقراري: لن أذهب إلى مكان!

كان غوما قد نزل القمة وقطع خطوات عبر السفح فعاد يصعد الجبل بيديه وقدميه معاً.

أنفاسه تتلاحق، فلم يعرف العراف بسبب الأعياء أم الانفعال. وقف لحظات ثم جلس على صخرة أخرى بجواره. قال العراف:

- بعد كل هذا العمر من الزهد.. تريدني أن أفرّ من قدري. هذا مضحك حقاً.. مَنْ قال لك أني لم أكن أنتظر هذه اللحظة؟

ساد الصمت.

قال غوما:

- ولكن القرآن. القرآن يحذر المؤمنين من أن يلقوا بأنفسهم الى التهلكة.

الاحتكام الى القرآن لم يقنع العراف. قال:

- القرآن يدعو المؤمنين أيضاً إلى التسليم والاستسلام ويعتبر الهرب من القدر تمرّداً ضد إرادة الله.

- سبحان الله.
- سبحان الله.

ساد الصمت.

قال غوما:

- ليس لدينا وقت. سوف نغرق جميعاً. هل آخذك بالقوة؟

- هيء - هيء - هيء..

ساد الصمت زمناً قبل أن ينهض العجوز ويزحف نحو المغارة. همهم

باستسلام:

ـ سألجأ إلى قبري. سبق وأن قلت للجاروف عندما حاول أن يبعدني عن الواحة بالقوة: لن أغادر آدرار إلا على محفة!

هجمت العتمة واستطاع الماء أن يحتل مساحات جديدة حول رقبة الواحة.

(١١)

في الطريق إلى كوخ كونسا لم ينس غوما أن يمر على المقبرة ويقرأ الفاتحة على روح أخته الزنجية وكلبه الصدّيق و... باتا!

الكوخ كان مظلماً ومهجوراً.

انحرف يساراً وعبر أدغال الديس الكثيفة متوغلاً في الغابة شرقاً. اكتشف أن رقعة الطوفان قد اتسعت وأكلت مزيداً من الأراضي. قال في نفسه وهو يمشي شمالاً: الليلة ستلتحم الدائرة وستقبض السبخة على ما تبقى من الأرض اليابسة!

بحث في الظلام وكسر عوداً جافاً من شجرة رمان استعمله لاختبار الأرض. وصل إلى المكان الذي عبر من خلاله في العصر فوجد أن الرطوبة قد اقتحمته. استمر شمالاً حتى أطل على جماعة تتنقل بالمشاعل وتتجمع في المنخفض. عرف منهم أن سيارة شحن قادمة من الشمال غرقت في الأوحال وابتلعتها البالوعة، فانحرف غرباً ومشى حتى اقترب الليل من الانتصاف.

عثر على قطعة يابسة عبر منها إلى الشاطىء الرملي الغربي الجنوبي وتأكد أن الحلقة ستقفل قريباً وستصبح الواحة جزيرة معزولة بالأوحال.

وصل إلى سفوح جباله الرملية الآمنة مع قبس الفجر. وقف يصغي للصمت فسمع هدير النبع النائي. هدير مزدوج. صوت الماء المندفعة من الفوهة، وصوت آخر يصنعه ارتطام الماء بالطين وعودته الى الأرض. هدير مزدوج مهيب وغامض. سكون الفجر يزيده سحراً وغموضاً. ترى من أين يتدفق الماء وإلى أين يذهب؟

غرس عصاة الرمان، التي اهتدى بها في طريقه وجلس فوق المرتفع يراقب جبل

الماء المنهمر في ضوء الفجر الشحيح. أخرج المسبحة وبدأ في مداعبة حبيباتها المتآكلة من فرط الاستعمال.

أصغى لصوت الصمت وخرير الماء البعيد.

(١٢)

جاءه آهر وقال له أنه قبض على الفقيه المحتال.

تساءل في اهتمام:

ـ الفقيه المحتال؟

ـ مبروك دبّار.. هل نسيت مبروك؟

ـ مبروك دبّار؟

جلس قبالته وقال ببرود:

ـ بلحمه ودمه. هل تصدّق؟

تفرّس في وجه آهر وتساءل في نفسه عما إذا لم يكن الأمر مجرد دعابة. أضاف آهر بنفس البرود:

ـ قبضنا عليه متنكراً في ثياب المتسوّل!

ـ المتسوّل؟

ـ نعم. لم يكن مقعداً ولم يكن أعمى. هل تتصوّر؟!

ـ يا ربي. كنت أعرف أنه شحاذ مشبوه. ولكن أين قبضتم عليه؟

ـ هنا. في النجع.

ـ في النجع؟!

توقفت أصابعه عن دحرجة حبات المسبحة تماماً فكوّرها في قبضته ودسها في

جيبه. سرد آهر القصة:

- جاء طمعاً في عطايا نساء قبيلتنا. برغم أن آيس يؤكد أن النساء هن اللائي قمن بدعوته لزيارة الأكواخ وأجّرن حماراً وفلاحاً جاء به إلينا!

- يا رسول الله!

- سبقته الدعاية وأغرتهن مواهبه في قراءة الغيب فوجهن له الدعوة!

- سترك يا رب!

- أنت تعرف النساء. يمتن من الفضول لمعرفة ما إذا كان أزواجهن ينوون الزواج. هذا هاجس جميع النساء. نساءنا خاصة.

- لعنة الله عليهن.

هنا ضحك آهر فجأة وسقط اللثام عن فمه فانكشفت شعيرات لحيته الفضية وأضاف:

- لقد نسي المحتال أنه أعمى ومقعد فألقى بالخرقة السوداء التي تعصب عينيه وانطلق راكضاً بمجرد أن سمع ببالوعات السبخة تلتف حول رقبة الواحة! هل تعلم لماذا؟

غطى فمه بطرف اللثام وعاد يضحك وهو يختتم قصته:

- لأنه خبأ مدخراته هناك!

- المجرم. مدخراته من أموال الفقراء.

- نبهني آيس إلى أمره فلحقنا به عند مشارف الأوحال المواجهة لعين الكرمة. حاول أن يقفز إلى البالوعة عندما رأى أننا كشفنا أمره.

- لم يكفه ما سلبه من التحايل فقرر أن يعود الى الواحة ليسلب آخر مليم ببدعة التسوّل. المجرم!

- إنه يرقد في كوخ آيس مقيد اليدين والرجلين. نهض غوما واقفاً فنهض آهر أيضاً. قال غوما:

ـ ليس لدينا وقت نضيعه الآن في استجواب المحتالين. علينا أن نستعد للرحيل.

ثم استدرك وهو يمشي نحو الأكواخ التي دبت فيها الحياة وغمرتها الفوضى التي تصاحب الاستعداد للرحيل:

ـ ولكن العقاب واجب. لا بد أن ينال حقه من العقاب!

ثم همهم لنفسه:

ـ كنت أشك طوال الوقت. كدت أكتشف الحقيقة عندما علمت بما فعله بالرومية المسكينة!

(١٣)

ماريا اختفت قبل بداية الهوس بثلاثة أيام.

فبعد عملية الكوي التي تعرضت لها من قبل دبّار عانت من الحمّى والقيء والهذيان.

سهر كونسا على رأسها حتى الصباح وعندما رأى أنها أغفت خرج يترنح لزيارة زهرة في الحي القديم. عاد بعد ساعات فلم يجد ماريا. بحث عنها في كل مكان ولم يعثر لها على أثر. دخل الغابة واستعان بالفلاحين في البحث عن المريضة. أحدهم مال نحوه وقال في فزع: «أخشى أن يكون لجيرانكم يد في الأمر». وعندما تساءل كونسا عن أي جيران يتحدث، عاد الفلاّح يميل نحوه بعد أن بصق لعاب المضغة خلفه: «ومَنْ يمكن أن يكونوا غير الجن والعياذ بالله؟ آن الأوان كي تفهم رأسك من رجليك يا كونسا. أنت الآن مسلم. واحد منّا، وعليك أن تفتح عينيك إذا شئت ألاّ يفتك بك سكان الأنقاض وأنت نائم على قفاك! هه. هه. هه...».

نظر إليه كونسا باشمئزاز فتوقف الفلاح عن ضحكته البلهاء. استمروا في البحث حتى نزل الظلام. في ذلك الوقت كان الماء قد قطع مرحلة جديدة في رحلته حول خاصرة الواحة.

عبروا الغابة طولاً وعرضاً قبل أن يجدوا مَنْ قال لهم أنه رآها في أحراش الديس غرب عين الكرمة مساء الأمس. أضاف الفلاح - وكان مخموراً تفوح منه رائحة كريهة حسبها كونسا رائحة روث الحمير في البداية - أنه رآها تترنح وتتقيأ مما يدل على أنها استولت في نخلة مّا على قلة لاقبي! ثم غمز الفلاح بعينه وقال بصوت مكتوم وهو ينفض الغبار والطين عن كفيه المتشققتين: «من حقنا أن نفخر باختراعنا ما دام يروق حتى للنصارى!» ثم كتم ضحكة وبصق خلف منكبه وأشار لكونسا للمكان الذي رآها فيه.

هناك تحت شجرة نخيل صغيرة، عثروا على آثار القيء.

بحثوا عن آثار تدل على وجهتها فلم يعثروا على شيء. اختفت الآثار تحت دبيب الحشرات الليلية وحوافر الدواب وأقدام الفلاحين.

أثناء البحث أدركوا أن الأرض الندية تزحف وتلتهم المساحات تلو المساحات فانفضّ الفلاحون عن كونسا بالتدريج وذهبوا للملمة متاعهم والاستعداد للهجرة. وجد نفسه وحيداً في نهاية المطاف. قال في نفسه وهو يلهث ويمسح العرق أن قدمها ربما زلت وسقطت في الوحل المتوحش خاصة إذا لعب اللاقبي برأسها كما يؤكد ذلك الفلاح. انتفض وهو يتخيل ماريا تغيب في الوحل الرجراج، يشل الخمر لسانها فتعجز حتى عن الصياح وطلب النجدة. أحس نحوها باشفاق لم يسبق أن أحسه تجاهها، وأحبّها في تلك اللحظة كما لم يحبها طوال حياتهما معاً. ابتسم رغم المحنة وهو يسمع الفلاح الأخير يهمس في أذن زميله ويتراجع الى الخلف خطوات ليفسح لهما الطريق: « .. قل لصاحبك الرقريقي أننا نعجز في معاندة امرأة واحدة فكيف سيكون حاله وهو يعاني امرأتين مرة واحدة!». تعب من الجري وأحسّ بالعطش. قرر أن يعود إلى عين الكرمة ليشرب ويغسل أطرافه ويلتقط أنفاسه قليلاً كي يواصل البحث على ضوء القمر.

زحفت العتمة ولكن بهرة القمر تأخرت عن موعدها مع قمم جبال الرملة الشرقية.

شرب وبدأ يغتسل. غمر وجهه بالماء وأصغى لصوت الماء الآخر: ماء النبع.

صوت خفي، رهيب، يهدّد، بلغته الغامضة، ويتوعد بإيقاع مكتوم.

خيّل له أنه يسمع خرير المياه وهي تحفر تحت الأرض وتنساب عبر تجاويف

السبخة وفراغات الملح.

حبس أنفاسه وأصغى. هدير المياه الفوقي والسفلي يختلط بالصمت وصياح الجنادب فيتكوّن نغم غامض يشير إلى الحقيقة ويبوح بسر الحياة.

في العتمة، فوق مياه العين الهادئة، عند الفتحة المسدودة بالليف وخرق القماش التي تنطلق منها المياه إلى الجداول، رأى رجلها منصوبة إلى أعلى، طافية فوق الماء الساكن. كان نصف ماريا عالقاً بتجويف العين، عند الفتحة. الفتحة اعترضته ومنعت الجسد من أن يطفو فوق سطح الماء.

لم يستطع كونسا أن يخلّصها من الكمين إلا بعد أن فتح السدادة ونزع أكوام الخرق والليف وقطع القماش فاندفعت المياه عبر الساقية إلى الجدول وجرفت في طريقها جسد المرأة المنفوش.

عرف على الفور أن زمناً طويلاً قد مضى وهي على هذه الحال.

لم يكن كونسا يعلم، حتى تلك اللحظة، أن السد الترابي الذي يحمي عين الكرمة من الطرف الجنوبي الشرقي قد بدأ يتداعى وينهار فاندفع ماء العين في ماء النبع ليكونا معاً بحيرة كبيرة من الوحل والطين والملح.

(١٤)

لم ينخفض مستوى الماء واستمرّ الشلاّل العنيف يتدفق ويحفر حول خصر الواحة.

يئس الجاروف من تلقي ردّ الحكومة في عاصمة الولاية فدعا الأهالي إلى إخلاء البيوت وهجر الرقعة المهددة. ولكن نداءه جاء متأخراً لأن السنة الوحل بدأت تقتحم الديار.

قال الجاروف غاضباً وهو في طريق عودته من المركز يصاحبه الزبرجداني والساطور:

ـ فليهنأ بال غوما الآن. لقد حقق ما أراد ودفن آدرار وقفز إلى الرملة! منذ

دخل الواحة لم نر خيراً. نبهتكم منذ البداية إلى أن قصة النبع هذه لن تنتهي على خير، ولكنكم أرجعتم موقفي إلى العداء المزعوم. لم أعاده قط والله على ما أقول شهيد.

مسح العرق على جبينه ودحرج حجراً بنعله واستمر:

ـ العداء كان من جانبه. وها هو ينفذ نواياه ضدّي وضد آدرار فيغرق الواحة في الطوفان وينكد عليّ فرحتي بابني البكر!

بصق على الأرض فعارضه القاضي:

ـ اتق الله يا رجل! لا دخل لغوما بما حدث. الرجل ليس مسؤولاً عن تفجير غطاء الفوهة.

ـ ليس مسؤولاً عن تكسير الغطاء ولكنه مسؤول عن خرق غشاء الأرض فاستفزت وألقت بالغضب على رؤوسنا. الأرض تنوي الانتقام... كم معك من الحمير يا سي مختار؟

فوجىء الإمام بالسؤال فرفع نحوه نظرة حائرة وهو يتقدم خطوات ويسير بمحاذاته.

عاد الجاروف يلقي بالسؤال:

ـ أقصد كم معك من الحمير لحمل الأثقال؟ هل تستطيع أن تعيرني حماراً أو إثنين؟

تمتم الساطور بتردد:

ـ لا أظن. أمتعتي كثيرة والوليّة كل ساعة تأتيني بصرة جديدة من المخزن وتؤكد على أهميتها. أكوام الأمتعة ترتفع في ساحة البيت كتلال الرملة.

ـ لو رأيت أكوام الأمتعة في بيتي. لديّ قافلة من الحمير ولكنها لن تكفي. ما يحيرني كيف ومتى تتجمع كل هذه الأشياء.

تدخل الزبرجداني:

ـ هذه مساوىء الاستقرار في المكان. كلما بقيت مدة أطول كلما تكومت

حولك الأشياء العديمة النفع. ومع الوقت يمكن لهذه الأشياء أن تنهار على رأسك فتكتم أنفاسك. هيء ـ هيء...

حدجه الجاروف بنظرة صارمة ولكن القاضي لم يتوقف.

ـ .. ولذلك يعشق الصوفيون الترحال والتنقل. في التنقّل تحرر من قبضة الأشياء.

ظل الجاروف يرمقه بفضول في حين أضاف الزبرجداني بلغته التي لا تناسب الموقف:

ـ الخلاص من الأشياء. يا له من حلم!

اقتربوا من ساحة السوق فقام الجاروف بمحاولة لتغيير الموضوع:

ـ أفهم من هذا أن أمتعتك أقل يا سي صالح. أعرني حماراً أو إثنين بالله!

الزبرجداني استمر بنفس اللغة الغامضة متجاهلاً طلب الشيخ:

ـ انظروا إلى الشيخ غوما. في ذلك العام عندما حلّ وباء العقارب كفّر عن خطاياه وخطايا أهله بحرق الممتلكات وخرج إلى سفح الرملة بيدين عاريتين فكافأه الله بالنجاة من الطوفان.

تمتم الجاروف:

ـ أنت تخرّف يا سي صالح...

ـ الخلاص من الأشياء والتجرد من الممتلكات نعمة تعلمها من الصوفيين. أو ربما من الصحراء.. الله أعلم..

ـ أنت تهذي. ربنا يشفيك.

ـ ثمة أشياء كثيرة كان يمكن أن نتعلمها من شيوخ الطرق، ومن الصحراء..

ـ سبحان الله...

ردد الساطور أيضاً:

ـ سبحان الله...

قال الزبرجداني بنفس اللغة:

ـ ولكننا ضيعنا حياتنا يا شيخ عبد الجليل. ولم نتعلم شيئاً... الصحراء معلّم حكيم لم نستمع إليه طول حياتنا، لأننا كنا مشغولين بتنفيذ أوامر النفس التي لا تأمر إلا بالسوء...

تمتم الجاروف وهم يتفرقون في الساحة ويهرعون لحزم أمتعتهم استعداداً للرحيل:

ـ ربنا يشفيك يا سي صالح. كنت عاقلاً حتى وقت قريب!

أسرع الجاروف يصعد المرتفع نحو بيته فسمع الزبرجداني يهتف خلفه بصوت مزعج:

ـ الانسان يمسك بذيل الحقيقة دائماً بعد أن يكون الأوان قد فات...

القاضي كان على حق. لأنه الوحيد بينهم الذي أحسّ بالخطر وأعلن عن شكّه في الخلاص بصوت مسموع. إذ لم تكتب لهم النجاة.. ولم يلتقوا بعد ذلك أبداً!

(١٥)

أصبح غوما يتحايل على الأرق بالإصغاء لصوت الشلاّل أو تفقّد المساحات الجديدة التي استولى عليها الماء مستعيناً بعصاة الرمان.

ارتوت الأرض وطفح الطين وارتفع مستوى الماء. في بعض المناطق غمر الأحراش وتطاول وتسلق النخيل بضعة أشبار. أما الجداول والمزروعات فغابت واختفت في بحيرات الماء المعتم الذي تطفح فوقه أعشاش الحمام وأعراف النخيل ويشهد مسابقات الضفادع.

عاد الشيخ من جولته التفقدية لشاطىء البحر وجلس فوق المرتفع يصغي لصوت الشلال الذي غيّر لهجته الآن، بعد ارتفاع منسوب المياه، وأصبح يتحدث لغة أخرى لا تقلُّ غموضاً. لغة تتمتم بسرّ الوجود. لغة منابع الماء دائماً حكيمة.

طلع القمر فازدادت اللغة عمقاً ودلالة. أصغى في خشوع وهو متقرفص في مواجهة مشروع الضوء الذي طرحه القمر الطالع. تذكر المحاكمة التي أجراها البارحة لمبروك دبّار. كان يريدها أن تكون محاكمة تهديه إلى السبب الذي جعله يعود إلى آدرار بعد أن فعل بها ما فعل ونهب ما نهب فوجد الأمر يتخذ منعطفاً لم يقرأ حسابه. أمر بحلّ وثاقه فاعتدل دبّار في جلسته ومسح فقاعات الزبد المنتشرة حول شفتيه وتعلّق بغوما في نظرة طويلة قبل أن ينهار باكياً ويطلب الرحمة. قال وهو يشهق كالطفل ويمسح دموعه بطرف جلبابه المتسخ ببقع الزيت ولعاب التبغ، أنه اضطر لجمع المال ليس حبّاً في المال وإنما كي يحرر زوجته من عصمة أحد التجّار في واحات الشمال. خسرها في لعبة قمار منذ ما يزيد على العشرين عاماً. فوجيء الشيخ فتبادل النظرات مع الشيخين خليل وآهر. كان آيس يجلس في الزاوية يقلّب كتبه وكراريسه مبتسماً فنهره آهر فزحف على يديه وركبتيه خارجاً من الكوخ وهو يكتم ضحكة كادت تفلت.

استمر مبروك دبّار يسرد قصته فأضاف أن التاجر عقد عليها وضمّها إلى حريه المكوّن من ثلاث زوجات استولى على اثنتين منهن من مراهنات القمار أيضاً وعجز زوجاهما عن استردادهما بسبب الشروط المالية التعجيزية التي يضعها هذا التاجر الجشع. وقد استغلّ حبه لزوجته وحداثة زواجه منها فاشترط مبلغاً باهظاً ؛ طلب مائة ليرة ذهبية مقابل أن يردّها له فعقد العزم على استردادها وهام على وجهه في الصحراء فعمل راعياً، ثم مرافقاً لقوافل التجار إلى أواسط القارة ولكن جمع المائة ليرة كان أمراً صعباً اللهم إلا إذا عثر المرء على كنز. وقد حاول أن يجرب حظه في الكنوز خمس سنوات ولكنه لم يعثر على قطعة واحدة فقرر أن يلجأ إلى الحيلة. ارتدى أسمال الفقهاء واحترف كتابة الأحجبة ومعالجة الممسوسين بواسطة الكوي بالنار. واعترف أنه اتخذ هذه الحرفة مصدراً للرزق بسبب ملاءمتها لإنسان مثله يجهل أسرار التنجيم فخشي أن يتطاول على السحر ويدّعي ما لا علم له به فيكسر الجان رقبته. قال: « .. رأيت أن الكوي بالنار يدرّ ربحاً ويبعدني عن الخطر الذي يتطلبه الصراع مع سكان العالم السفلي » فاستفزت الجملة الشيخ غوما وتذكر ما فعله بابن المرحوم مرزوق والمرأة الرومية. قفز الغضب من مقلتيه فأسدل اللثام فسارع دبّار يشحذ رحمته ويحتمي من غضب الشيخ بمقاطع مؤثرة من قصته. قال إن امرأته الأسيرة أنجبت طفلاً ذكراً بعد ثلاثة شهور من انتقالها إلى ذمة التاجر، ولم يكتب له رؤية إبنه إلا أخيراً عندما هاجر الواحة هرباً من سوط

الشيخ غوما فلم يصدّق أن هذا الفتى اليافع الذي لم يتجاوز بطن أمه، رهن التكوين، منذ ما يزيد على العشرين عاماً هو الذي يقف أمامه الآن. هنا عاد دبّار ينشج كالطفل وهو يقول: « .. هل تتصوّر يا شيخ غوما؟ لقد أنكرني. قال ان أبيه لا يمكن أن يبيع أمه في القمار. ثم سألني إنْ كنت قد عدت بالمائة ليرة ذهباً. سألني باحتقار فلما قلت له أن ما معي لن يزيد عن التسع والثمانين بصق في وجهي ونصحني أن أعود على أعقابي وألاّ أعود إلا بعد أن آتي بالإحدى عشر ليرة الباقية. هذا أجبرني أن أعود إلى الواحة. فتنكرت في أسمال المتسوّل ».

تمتم الشيخ خليل: « لا حول ولا قوة إلا بالله » في حين تبادل آهر مع غوما نظرة سريعة. اختتم دبّار قصته: « هل تعلم يا شيخنا؟ لدي الآن مائة وثلاثة ليرات. كنت استعد لمغادرة آدرار عندما انفجر النبع الملعون. قل لي بالله: ماذا أفعل الآن؟ بوسعك أن تسلخ جلدي بسوطك يا شيخ غوما. أنا أستحق الجلد. نعم. أريدك أن تجلدني. أريد أن أكفّر. أريد أن أتألم. يقولون ان الألم يساعد. أريد أن أنال القصاص. اجلدني بالله يا سي الشيخ! لا أريد الرحمة! لا ترحمني باللّه! ».

استمر ينشج كطفل فقد أمه. ثم: « .. الآن، بعد كفاح أكثر من عشرين عاماً، استطعت أن أجمع حصيلة العمر. مائة ليرة ذهبية. بل وفوقها ثلاث ليرات أخرى.. الآن.. تتدخل القوى الغيبية وتفسد كل شيء. ضاع كل شيء. عجّل يا شيخ غوما بالعقاب ودعني أحاول الوصول إلى ثروتي! ».

خطر للشيخ أن يقول: « لا تحاول. سوف لن تستطيع الوصول » ولكنه تراجع رغبة منه في أن يهوّن عليه الفاجعة.

عاد مبروك دبّار يلحُ: « أنا بانتظار العقاب يا شيخ غوما. » شعر غوما بالضيق فنهض باشمئزاز وأشار لآهر أن يتبعه. قال له خارج الكوخ: « إيَّاك أن تتركه يذهب. سيغرق في الوحل. الصدمة طيّرت رأسه ولا يفكر الآن بعقل سوي! » وخرج لتفقد استعدادات الهجرة في الأكواخ المجاورة.

لم يكد يبتعد خطوات حتى خرج دبّار من الكوخ وصاح خلفه: « لا تنس يا شيخ غوما أني بانتظار العقوبة. لن أتحرّك حتى أنال نصيبي من سوطك الشيطاني. لقد عملت ما يجعلني أستحق الجلد. أسرع باللّه. لديّ مهمة تنتظرني. لن أسمح

للصدفة ولا لنبعك الملعون أن يضيع ثروة جمعتها في عشرين سنة...».

كان يمشي خلفه ويلاحقه بالثرثرة المجنونة، والشيخ آهر يحاول أن يهدئ روعه ويعيده إلى الكوخ.

في الليل جاءه الشيخ آهر وأخبره أن مبروك دبّار قد دبّر الهرب. استغفله وتسلل من الكوخ في الظلمة. في الصباح تتبعوا أثره حتى بلغوا الشاطئ الرجراج. هناك وجدوا آثار خطواته وهو يمشي يميناً نحو جبل الماء ثم يعود على أعقابه إلى الناحية المعاكسة، ثم.. اختفت الخطوات عند بالوعة الوحل التي يطفح عليها الماء الآسن وزبد الملح.

(١٦)

لم يضعف تدفق الماء من النافورة الخرافية.

لم يكتشف الأهالي أنهم محاصرون في جزيرة معزولة إلا بعد أن جاءتهم أخبار غرق الشاحنة القادمة من الشمال. سارع فريق وقام بمحاولة فدائية للعبور في الجزء الشرقي الغربي من الغابة ففقدوا حميرهم في العملية.

تصاعد الهوس.

انهارت فراغات بجوار المقبرة فطلع لسان مائي طيني كالأفعى وشق الجزيرة إلى شطرين.

لم يبق أمام الأهالي الآن إلاّ أن يتشبثوا بالجبل. تسلقوه من الجهات الأربع وانتشروا فوقه من قمة الرأس حتى أسفل الحذاء.

ضجيج النساء وصراخ الأطفال يحجب الآن هدير الماء الذي استمر يغذي الأنفاق والفراغات تحت الأرض.

أدرك الأهالي أخيراً أن آدرار تقوم على سراديب من السبخة.

طوال الليل ظلت أضواء المشاعل تبرق وتتلامع حول الجبل الذي أصبح المعقل الأخير.

الضجيج أيضاً لم يهدأ.

راقب الشيخ غوما هذه القيامة حتى منتصف الليل. جاءه آهر وخليل وجلسا قبالته على الربوة. آهر يحمل طبقاً استقر فوقه وعاء مليء بالشاي وثلاثة كؤوس. أبصر في العتمة قطعاً من الكعك أيضاً. وزّع الشاي على الكؤوس الثلاثة فقال خليل:

- إذن هي الهجرة مرّة أخرى يا شيخ غوما؟

تناول كأس الشاي فلاحظ أنه بدون رغوة. قال في نفسه أن الشاي أعدّ من يد امرأة. النساء فقط تجهلن صنع الرغوة. رشف الشاي فأحس بطعم عطر الـ«باريسيان». العطر أفسد طعم الشاي وقضى على الرغوة. تباطأ في الاجابة على تساؤل خليل فقال آهر:

- في الصحراء طردنا الجفاف ونضوب الماء في البئر، وفي الواحة طردنا الفيضان وغزارة الماء. أليس هذا غريباً؟

وضع غوما الكأس على الأرض وقال وهو يراقب الأضواء المتلامعة في السهل:

- لا أرى أي غرابة. الإنسان مطارد ما دام حيّاً. مطارد من الجفاف أو من الفيضان. في الحمادة الحمراء كنّا نعيش سنوات ونحن نركع لله في صلوات الاستسقاء نشكو القحط والجفاف ونطلب الماء. وعندما يحنُ وتأتينا السيول من رؤوس الجبال جارفة المواشي والدواب بل وبعض الأرواح أحياناً حتى أن بعض ضعاف النفوس يرون في السيل نقمة ولعنة.

انحنى فوق الرملة ومسح الأرض ممهداً لوضع خريطة لبناء مدنه الغامضة ولكنه لم يستطع أن يتبين الخطوط بسبب الظلمة. أضاف:

- أمَّا أنا فأعامل الأمر كما يعامله ذلك الذئب الحكيم الذي يملأ الوادي بالقهقهات عندما يجوع لأنه يعلم أن ليس بعد الجوع إلاَّ الشبع. وعندما يحصل على نصيبه ويشبع يملأ الوادي عواء وعويلاً لأنه يعرف أن الشبع يعقبه أشرس الجوع. أريد أن أقول ان الينابيع إذا جفَّت فابحثْ خلف السراب عن مفاجأة. الصحراء دائماً تخبيء مفاجأة في مكان ما. ستجد بئراً وربما بحيرة.

صمت ثم مدّ يده ورشف من كأس الشاي الردي، على مضض. رائحة العطر في الشاي تثير الغثيان ولكنه اضطر أن يشرب مجاملة لآهر.

عاد يقول:

ـ ولكن المفاجأة الأخرى هنا. يروق للصحراء أن تداعبك قليلاً فتغدق عليك بالماء وتسوق في طريقك بئراً وتتلف الحبل أو الدلو أو كلاهما معاً. هل تذكران قصة الراعي الذي اهتدى إلى البئر بعد أن تجرد من ملابسه في الطريق. لقد واجه خياراً صعباً. اما أن يموت عطشاً وهو يتفرّج على الماء تحت قدميه أو أن يرمي بنفسه الى البئر ويموت غرقاً. وقد نفد صبره وطيّر العطش عقله فقفز في الماء وشرب ومات غرقاً بالماء. وربما كتبت له النجاة لو انتظر قليلاً لأن قافلة مرت على البئر بعد انتحاره بساعات.

صبّ له آهر كأساً آخر فغافله ودلق الكأس في الرمل وأهال عليه التراب ثم أضاف منهياً قصته:

ـ أمرنا لا يختلف كثيراً. جئنا إلى آدرار هرباً من العطش ونغادرها هرباً من الماء. بجوار أطلانطس كنا مهددين بالموت بسبب انعدام الماء وها نحن في الواحة مهددون بالهلاك غرقاً في الفيضان. فأي غرابة في هذا؟

حاول أن يتبيّن خطوطه في العتمة ثم مسحها عن وجه الأرض بحركة مباغتة ورفع رأسه قائلاً:

ـ هذا يمكن أن يكون مفاجأة للغافلين فقط. للغافلين من أبناء الواحات الذين يجهلون لغة الصحراء ولا يعرفون أنها لا تختلف عن الحياة. إنها الحياة..

علق خليل:

ـ معك حق. الحكمة تقول: لا تحط رحالك في الوادي إذا شئت ألا يجرفك السيل.

ساهم آهر لأول مرة:

ـ لا بد أن تكون مستنفراً دائماً إذا أردت النجاة.

أيده غوما :

- نعم. الاستنفار. هذا ما أردت أن أقول: إذا استرخيت واستسلمت للراحة غافلتك السماء - كما في الحمادة - وضربتك بالسيل وأنت نائم في السهل. انظروا إلى هذه القيامة.. إنهم مشدودون إلى الغابة، إلى الأرض... إلى بيوت الطين، إلى الأشياء. إنهم عبيد أشياء صنعوها بأيديهم ثم نسوا أنفسهم وشرعوا يعبدونها مسمّين ذلك استقراراً. العبودية في الاستقرار. في جمع المال ومقتنيات الدنيا.

سارع آهر :

- والحرية في التنقل.. في الترحال. أليس هذا ما أردت أن تقول؟

مضى غوما متجاهلاً تساؤل آهر :

- اللهم قِنا شرّ المال ومقتنيات الدنيا!

تدخل خليل :

- أليس هذا ما يسميه العامة : الزهد؟

احتج غوما :

- البلهاء وليس العامة. البلهاء يرون أن هذا زهد وتصوّف، وأراه أنا خلاصاً وحرية!

صمتوا فوعد الأفق بمطلع القمر. تأخر طلوع القمر.

أصغى غوما لهوس الأهالي عند أقدام الجبل وراقب المشاعل المتنقلة وهي تومض وتختفي في الظلام.

أحس بألم عندما تذكر مهمدو.. و.. صرح نخلته الهيفاء المنكفئة برأسها المقطوع نحو القبلة كأنها تصلي لشروق الشمس كل يوم.

ردد بنبرة حزينة غائبة :

- اللّهم أجرنا من شرّ المال ومقتنيات الدنيا!

(١٧)

.. هلكت آدرار.

طار الخبر على جناح الريح ووصل عاصمة الولاية. طرق أبواب الوالي ودخل قبل أن يؤذن له. كان الوالي يعقد اجتماعه الاسبوعي فالتفت إلى رئيس المجلس التنفيذي وتساءل:

ـ تقول آدرار؟ أليست هذه هي الواحة التي اتخذها المجاهد غوما مقرّاً له؟ لقد نزلنا عند رغبته وأنفقنا أموالاً طائلة لنحفر بئراً لقبيلته. لم أكن أعلم أنه يسعى لأن يحفر قبره بيديه. رحمه الله. قمنا بواجبنا على كل حال. لم نقصّر في شيء.

ثم انسلّ الخبر خارجاً وتسلل عبر اللاسلكي حتى طرق أبواب رئيس الحكومة في طرابلس فوجده يستلقي على أريكة فاخرة في مكتبه المكيف، يضع رجلاً على رجل ويدخن غليوناً فخماً. طلب قهوة وكوباً من عصير البرتقال المثلج وألقى بالجريدة الانجليزية جانباً وخاطب سكرتيرته الحسناء:

ـ مطالب أهالي الواحات في السنوات الأخيرة لا أول لها ولا آخر. الحمد لله الذي خلّصنا من وجع الرأس وأغرق إحداهن. اللّي يموت من الشياطين يخفف على الملائكة! هيء ـ هيء ـ هيء...

استدار الخبر وطار عبر الأسلاك اللاسلكية واقتحم على الملك هدوءه في قصره الشتوي بطبرق. قال العجوز ـ وهو يسلم يده للطبيب الخاص كي يقيس له الضغط ـ مخاطباً رئيس الديوان الملكي المصلوب قدّامه كتمثال من حجر:

ـ الواحات عبء كبير على المملكة. اللورد كينجستون أخبرني بعد الاستقلال أن الصحراء الكبرى منطقة مهددة بالزلازل واندلاع البراكين فقلت له: «من فمك إلى باب السماء. ربنا يسمع منك ويخلصني. أنا لا أريد من ليبيا غير شريطها الساحلي». هه ـ هه ـ هه...

تحوّلت ضحكته إلى نوبة سعال طويلة. ثم مال ناحية التمثال ـ الذي يرتدي طربوشاً عثمانياً أنيقاً، ويزين صدره بالأوسمة الذهبية ويضطلع بمنصب رئيس الديوان الملكي ـ وأضاف وهو يقاوم نوبة السعال:

ـ الله نفسه ضد الصحراء. حرمها حتى من النفط وأتى به إلى الساحل. هل هناك أمل في أن يغمر الطوفان كل الواحات في الدواخل ويشفينا من الصداع؟

ولكن الصنم لم يرد على تساؤل صاحب الجلالة.

الأصنام فقط تجرؤ على تجاهل تساؤلات الملوك.

(١٨)

... اختفت آدرار من الوجود.

ولو لم يصل الشيخ غوما بقبيلته وادي الآجال، بعد أربعين يوماً من انطلاقه لعبور الصحراء الرملية، لما صدّق أحد أن هذه الواحة وجدت فوق الأرض يوماً ما.

موسكو

بين ابريل ومايو ١٩٨٨م

الهوامش

(١) المملكة الليبية المتحدة: الاسم الرسمي لليبيا قبل عام ١٩٦٤ م عندما ألغى نظام الولايات الثلاث: طرابلس وبرقة وفزان وأصبح يطلق على ليبيا «المملكة الليبية».

(٢) القوات المتحركة: الجهاز البوليسي المتخصص في قمع الانتفاضات والتظاهرات وحماية النظام.

(٣) الرقريقي: الأغريقي.

(*) تقول الخرافات الشعبية أن القدم هو العضو الوحيد الذي يعجز الجن عن تقليده.

(٤) الشاطئ، الرابع: مصطلح روماني قديم أطلقه الرومان على الشواطئ الليبية عند غزوهم لها على تخوم العصر الميلادي. وقد ردده الطليان في بداية القرن لتبرير غزوهم لليبيا.

(٥) الهجانة: فرق قتالية صحراوية تعتمد في تنقلها على المهاري والجمال استعان بها الطليان لعبور الصحراء، والتغلب على المناطق الصعبة في الدواخل.

محتويات الكتاب

١ ـ النبع ٧

٢ ـ الغزو ٦٥

٣ ـ الطوفان ٩٩

الماء يطهّر الأرض من الظّلمةِ و الأشرار ويبقى القِلّة المجاهدة والمؤمنة ، هذه الموضوعية الميثولوجية القديمة تتكرّر مع قبيلة أمنغساتن وشيخها غوما ولكن بجماليةٍ ثرّةٍ وتفاصيل روائية تغني الأسطورة العتيقة قِدم البشرية .

يلتحم السحريّ بالتاريخ لتتم مقاربة أحداث العدوان الإيطالي على الصحراء والساحل الليبيين ، وتنجدل العناصر الطبيعية بحوادث التاريخ فينفجر غطاء الإسمنت وتطوف المياه لتهلك واحة آدرار بمن فيها ، فيما تنجو القبيلة بفضل حكمة زعيمها بعد أن تطهّرت من عبودية المكان ، وملكيّة الأشياء.



تاسيلي للنشر والاعلام



دار التنوير للطباعة و النشر